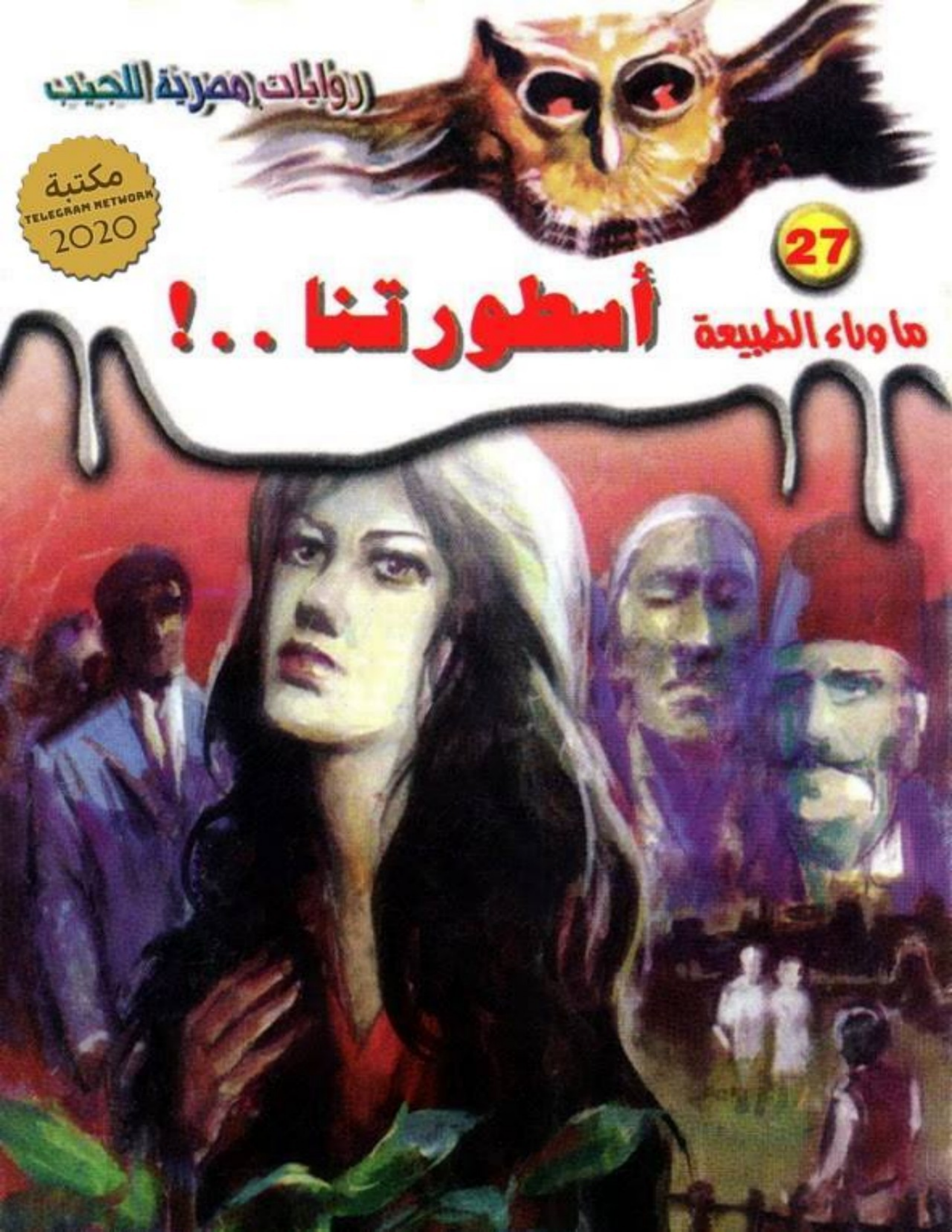


روايات مصرية للجيب
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020
27
ما وراء الطبيعة
أسطورتنا..!

مكتبة
Telegram Network
2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

لـ « د. أحمد خالد توفيق »

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

انتهيت من قراءة بعض الأوراق العلمية، وشعرت بـ (كاللو) العينين.. ذلك المرض لم يصفه أطباء العيون قط، لكني واثق من وجوده..

عيناي شبيهتان بقدمين مشتا أميالًا في حذاء ضيق.. وحين نزعت الحذاء - عويناتي - وجدتهما ملتهبتين منتفختين تنبضان ألمًا وإرهاقًا.. وقد تكون (كاللو) قبيح فوق كل منهما..

يسألني البعض: ألست متقاعدًا؟ لماذا ترهق نفسك بالدراسة إذن؟

أقول لهم - في كبرياء -: إنني تقاعدت لكنني لم أمت.. وأنا سأظل تلميذًا منبهرًا بالعلم حتى يحملونني إلى القبر..

إن الإنسان الميت هو الذي كف عن التعلم واكتساب الخبرات.. ولهذا ترون أننا محاطون بالموتى الأحياء طيلة الوقت، لكننا لا ندرك ذلك.. وأشنع المسوخ طرًا هو الميت الذي لا يبدو كذلك!

ما زلت طفلًا مفتونًا بكل هذا التقدم العلمي في الأعوام الأخيرة.. وكل هذه الطلاسم عن (الهندسة الوراثية) و(سلسلة البوليمريز) و(العلاج بالجينات) و(كاميرا جاما).. كل هذه الأسرار المقدسة التي لو سمع عنها (ماكس ليبمان) أو (لستر) لتحولا إلى قرويين ساذجين..

الآن دعوني أحك لكم قصة رهيبة جديدة..

إن السرد الكلامي يتعب اللسان، لكنه يرحم العينين..

اسمحوا لي بأن أطفئ الأضواء جميعًا، وأسترخي في مقعدي الأثير الوثير.. سأغلق عيني لأريحهما..

سأحكى لكم اليوم قصة أخرى لا دور لي فيها سوى السرد.. إنها لا تتحدّث عن أسطورة مصاص دماء.. ولا أسطورة مذءوب.. ولا أسطورة نبات قليل التهذيب.. ولا أسطورة وحش عائد من زمن سحيق ليجعل الحياة لا تطاق.. ولا....

إن هذه الأسطورة تختلف.....

إنـها..... أسطورتنـا.....

❋ ❋ ❋

١ - أسرتنا..

حين انتهيت من صياغة قصة (إيجور تاركوفسكي) وجنراله النازي، شعرت براحة كبرى..

لقد كان الخطاب طويلًا حقًّا كُتب في مائة وعشرين ورقة كبيرة، وبخط صغير جدًا.. وأعتقد أن طوله عند الطباعة سيقترب من الأربعمائة صفحة.. وأنا أحسد هذا الـ (إيجور) على صبره وحماسه.. وأحسد نفسي أنا على مثابرتي في تهذيب الأسلوب بعد ترجمته طبعًا..

وهكذا استطعت أن أكوم الخطاب في (دوسيه) خاص لأغراض كهذه، ودفنته في

درج مكتبي الأيسر السفلي الذي أفتحه كلما مرّت أربع وثلاثون سنة..
وبدأت التفتيش عن خطاب آخر مناسب..
تجاهلت - بالطبع - كل الخطابات عن (العفاريت في دورة المياه) و(التليفزيون المسكون) و(القط الذي يطير)..
تجاهلت كذلك كل الخطابات المتعلقة بالجان والمس.. أنا أومن بالجان، لأن القرآن الكريم ذكرهم بوضوح.. لكن الموضوع معقد ومليء بالاقاويل، ولا أريد التدخل فيه بالنفي أو التأييد حتى لا يُساء فهمي.. ويكفيني أن خبراتي مع الجان محدودة جدًا، فلست خير من يتحدث عنهم بالتأكيد...
آه ه! أخيرًا هذا الخطاب يصلح..

* * *

هذا الخطاب من مصر..

الخط على المظروف رديء نوعًا، وأنا أحب الخطوط الرديئة لأنّها تشي بصدق وجداني.. وانفعالية لم تهذب بعد..

إن الخط الجميل يكشف عن إنسان يرشح أفكاره بدقة قبل أن تلامس الورق، ولربما أعجبت بسلوك وتهذيب لورد إنجليزي.. لكني - بالتأكيد - أفضل قضاء أمسيتي مع شاب مصرى عادي جدًا يتكلم حين يريد الكلام.. ويضحك حين يروق له الضحك..

المحافظة هي (............)...

اسم المرسل هو: (هـ)..

(لست في حل من ذكر الأسماء كاملة مادمت أكتب لقارئ العربيّة)..

وعلى كل حال.. الخطاب طويل.. طويل جدًّا.. اقرب إلى كراس متوسط الحجم...

وبسهولة عرفت أن مرسلته أنثى.. أنثى متوسطة التعليم تخطئ في قواعد اللغة العربيّة كما يخطئ فيها الخواجة (جونسون) نفسه.. كما أنها تعاني مشكلة لا حل لها بالنسبة لحرفي (الذال) و(الزاي).. فتكتب (زنب) و(زالك).. وتكتب (رذين) و(ذاهي)...

أردت - فقط - أن أضعك في الصورة..

والآن.. تعال نطالع الخطاب معًا..

* * *

(عذيذي) د. (رفعت):
تحية طيبة و(بعض)..
(ملحوظة: سأبدأ التصحيح اللغوي الآن حتى لا أضايق القارئ).
طالعت بعض مغامراتك الشائقة في عالم الأشباح والأرواح، كما استمعت إلى حلقات من برنامجك الإذاعي [بعد منتصف الليل[1]]. وقد أحببت صوتك الوقور الرزين، وآراءك الهادئة في كل ما تسمعه عبر سلوك الهاتف..
الآن قررت أن آخذ رأيك في المشكلة التي أواجهها.. مشكلة لا حل لها للأسف لأنّها حياتي ذاتها..

فلو كنت تملك حلًا؛ أرجو ان ترسله لي على العنوان المرفق.. أو كنت لا تملك فلا بأس..

كل ما أطلبه منك هو الثقة بهذه السطور، والسرية التامة.. فهذه الحقائق ليست للنشر في أية صورة مقرونة بأسماء أبطالها الحقيقيين..

لا بد أنك عرفت محافظتي من العنوان، وعرفت كذلك أنني أقيم في قرية صغيرة قريبة من المركز.. هي (......)..

اسمها مضحك.. أليس كذلك؟ يقول البعض إنّه مستوحى من اسم فرعوني قديم.. ويقول آخرون إنّه تحوير لتسمية أطلقها الجنرال (مينو) بالفرنسية على موقع هذه القرية..

لا يهم.. المهم أنها موجودة.. وأننا نعيش فيها.. وأجرؤ على القول: إنني أحبها..

* * *

والآن دعني أعرفك أفراد أسرتي الصغيرة..

أولًا: أنا (هـ).. في السابعة والعشرين من عمري... آنسة.. حاصلة على دبلوم متوسط لكني لا أعمل..

من المعتاد هنا أن تقول كاتبة الخطاب: يقولون: «إنني حسناء».. لكنك في سن تسمح لك بالغفران للغرور البشري.. لا داعي للتواضع الزائف إذن.. أنا حسناء.. بل أنا أجمل شيء رأيته في حياتي..

لماذا لا تتزوج فتاة حسناء حتى السابعة والعشرين من عمرها، في قرية تسمى الفتاة عانسًا إذا لم تتزوج حتى سن العشرين؟!

هذا ما ستعرف سببه بعد صفحات عدة..

ثانيًا: أمي.. فلاحة عادية جدًا وبائسة.. لا يميزها شيء.. ويقال إنها ابنة خفير العزبة التي يملكها أبي، لكنّ أسئلة كهذه لا تطرحٍ.. ولم يجسر أحدنا على سؤالها..

ثالثًا: أبي.. الثرى الريفي الذي سأم حياة المدينة وعاد إلى الجذور.. يملك عزبة مترامية في القرية، وعلى وجهه الذي زانته السنون بتجاعيد الخبرة.. ترى ملامح عز قديم لا شك فيها.. وترى وسامة وملاحة لم تغمرها الأعوام بعد.. لقد انساب

النهر القديم ليروي الفروع.. والوسامة القديمة وجدت فروعها في بناته..
يقال أيضًا: إن أبي كان متزوجًا من إحدى وصيفات الأميرة (فوزية).. وهو وضع اجتماعي كان يثير الحسد في مصر قبل الثورة.. ثم إن المرأة المتعالية شامخة الأنف فقدت صوابها مرة... قالت لأبي إنها أخطأت يوم تزوجت فلاحًا إبن فلاح..
صارحها أبي بأنه فخور بجذوره، وأنه يفضل أن يكون فلاحًا على أن يكون من سلالة لص هرب من (الأستانة) وجاء إلى مصر متظاهرًا بالأرستقراطية..
ثارت المرأة وأمسكت بكوب الماء - وكانا على مائدة الغداء - وقذفته في

وجهه.. وكانت هذه آخر غلطة تقارفها في حقه..
يقال: إنّه أوسعها ركلًا وصفعًا.. ثم طلقها..
بعد هذا راح يفتش عن فلاحة طيبة تعرف حق زوجها وبيتها... أو - على حد قوله ـ أراد زوجة (من وراء الجاموسة)..
وكانت أمي هي الزوجة المناسبة.. ولم يكن مخطئًا تمامًا..
رابعًا: شقيقتي (س).. طالبة في كلية الآداب بالقاهرة.. في العادة تقيم في المدينة الجامعية أكثر أشهر الدراسة.. لكنّها الآن معنا في عطلة الصيف..
رأيي الخاص أن (س) أقل جمالًا مني بمراحل.. وهذا كاف لجعلها فاتنة!

خامسًا: شقيقتي (ن).. طالبة في المدرسة الإعدادية.. مراهقة جدًا.. لها كل مزايا وعيوب واهتمامات كل المراهقات الأخريات..

سادسًا: شقيقي (ي).. طفل في الثامنة من عمره.. شديد الذكاء والحيوية.. لكنه ـ كما هو واضح - (آخر العنقود) كما يقولون.. وبالتالي هو المدلل في الأسرة باعتباره ذكرًا.. وأصغرنا، وأنا أرجح أن تربيته خاطئة، وأنه سيشب سفاحًا أو مدمن مخدرات.. فكلهم يبدءون بذات الكيفية... لكنّ من في بيتنا يجرؤ على انتقاد أسلوب تربية (ي)؟!

أسرة تراها في كل مكان..

فما هو الغريب هنا؟

ما الشيء المفزع الذي يتسلل إلى أحلامك ليلًا، فيجعلك تصحو مذعورًا غارقًا في العرق البارد؟

سأحكى لك يا د. (رفعت)..

سأحكي لك أسطورتنا..

* * *

٢ - معارفنا..

ما كان لأبي أصدقاء كثيرون..
هذا متوقّع بالطبع.. أنت تفهم شعور أثرياء ما قبل الثورة هؤلاء الذين جاء التأميم ليأخذ منهم ما اعتبروه حقّهم الطبيعي.. وكان أبي منهم.. بعد هذا يكون نفور الأصحاب منه تدريجيًا.. ويدخل في طور التحول ما بين (اللامنتمي) إلى الثورة.. و(المتسلل) إليها.. على حد قول أديبنا العظيم (نجيب محفوظ)[2]..
ربما كان بوسعي أن أعد أصحابه على أصابع اليدين..

هناك الحاج (شعبان).. خفير العزبة.. ذلك العجوز الأشيب ذو الشارب الكث الذي يأتي دومًا في أوقات غير مناسبة - كالغداء والنوم - ليعطى أبي نقودًا، أو يعطيه أبي نقودًا.. وهما يتبادلان حديثًا هامسًا من أحاديث (الأعمال).. وعلى قدر علمي كان (شعبان) دائمًا هناك.. وسيظل..

هناك - كذلك - (عاصم بك).. وهو واحد من الأعيان السابقين، ما زال يعيش في الماضي حين كان يتنزه مع امرأته في (النمسا) كل صيف، ويقضي الشتاء في (سان مورتيز).. يرتدي دومًا حلة وردية اللون، في جيبها زهرة حمراء، وعلى رأسه طربوش أحمر فاقع اللون.. يصر على ارتدائه منذ أن أطار (أتاتورك)

الطرابيش من فوق رءوس الأتراك جميعًا.. ويصر على أن عرى الرأس (قلة قيمة)..
و(عاصم بك) عجوز متصابٍ.. لا يفهم أن دورة الزمن قد أطاحت بشبابه وماله.. لهذا يرتدي تلكم الثياب المبهرجة.. ويضع - صدق أو لا تصدق - ماكياجًا كاملًا مكونًا من كريم الأساس والكحل وأحمر الشفاه.. لكن محاولته هذه تزيده قبحًا وإرعابًا.. كأنه مومياء وضعوا لها ماكياجًا لتبدو حية..
إن أبي لا يثق بهذا الرجل.. ويؤكد أنه كان وصمة على البشريّة في شبابه، فمع هذا الرجل لم تجد الثورة ما تصادره.. أضاع الأحمق كل شيء على النساء

والشراب وموائد القمار التي يؤكد أنـها خضراء دائمًا..

الخلاصة: من الممنوع على أية فتاة في الدار أن يظهر كعبها عندما يكون (عاصم بك) عندنا..

تصوّر أنه قد طلب يدي من أبي!

رآني مرة واحدة وأنا أناول صينية الشاي للخادمة الريفية.. وكان هذا كافيًا كي يصارح أبي بأنه يشعر بالوحدة، وأن الوقت قد حان ليجد من تونس وحدته..

في كياسة أفهمه أبى أن فارق السن يتجاوز الخمسين عامًا.. وأن حفيدته يمكن أن تتجبني بسهولة.. ثم بدأ يزداد غلظة وهو يقتنع هذا المعتوه بأنه لو أصر على هذا فلن يرحب أبي به في الدار مرّة أخرى..



إن أبى لا يثق بهذا الرجل . . ويؤكد أنه كان وصمة على البشرية فى شبابه . .

وهكذا أغلق شيخنا قلبه على حبّه الكسير!

الضيف الثالث من ضيوف أبي مهندس ري في الأربعين من عمره، يُدعى (محمود أبو طه)..

رجل مهذب متأنق في غير إفراط.. وإن كان له عيب خطير هو ولعه بالشعر..

والشعر الذي يحبه المهندس (محمود) ويكتبه ويقرؤه ـ كلما وجد من يسمع دون معارضة - هو شعر المناسبات السخيف.. وأنا لا أفهم السبب الذي يجعل إنسانًا ينفعل بـ (عيد الفلاح) أو (وفاة وكيل أول الوزارة) أو (عيد المحافظة)، إلى درجة كتابة قصيدة لا تقل عن ستين بيتًا.. كلها تنتهي بقافية الألف على غرار (إقبالا - آمالا - إجلالا) أو (شبابا ـ يبابا ـ مهابا)..

وكل أبياته محكمة لكنّها مسطحة خالية من أي شعور.. (كلام موزون مقفى) على حد تعريف الشعر في الكتب القديمة..

للمهندس (محمود) زوجة لطيفة هي (زينب).. امرأة متأنقة كزوجها لطيفة المعشر..

سرعان ما كانت تترك الرجال لمجلسهم، وتدخل إلى الغرفة التي نجتمع فيها نحن النسوة، أو تقف معنا في المطبخ تعاوننا في إعداد القهوة..

تلثم أمي على وجنتيها في اشتياق، وتداعبها مداعبات ذكية طريفة لا تفهمها أمي بالطبع.. فقط تبتسم كاشفة عن أسنانها المتساقطة وتهتف في مرح:

- «خطوة عزيزة يا (زينب) هانم!»

وتنطلق (زينب) هانم تقرص هذه... وتلطم هذه.. وتدغدغ هذه.. و.....
- «لقد ازددت جمالاً على جمال يا بنت يا (هـ).. ترى أي شيء تطعمك أمك هذه المرأة الأريبة؟ وأنت يا (س)؟ لقد صرت نحيلة كالقلم الرصاص.. إنك تحرقين نفسك في الدراسة دون جدوى.. وفي النهاية ستتزوجين وتنسين كل هذا الهراء.. هيه! صدقيني.. ليس للمرأة سوى البيت.. لن تصيري (مي سلامة) مهما حاولت!»
فتقول لها (س) مصححة:
- «اسمها (مي زيادة) يا طانط.. (زيادة) لا (سلامة)..»
تقول مدام (زينب) وهي تلوح بيدها في استهتار:

ـ «قطيعة! (زيادة).. (سلامة).. لا فارق.. المهم هو ما نحصل عليه من سعادة في حياتنا.. إن الأمر.. اللعنة! إن زوجي يقرأ قصيدة جديدة بمناسبة عيد الحصاد.. سنعود إلى ديارنا مع الفجر.. تبًا!.. وأنت يا بنت يا (ن).. تزدادين جمالًا.. ترى هل بلغت مبلغ النساء بعد؟ هل أخبرتك الحاجة أم (هـ) بما سوف يطرأ عليك من.....؟»

فتقاطعها أمي في حزم باسم:

ـ «حنانيك يا (زينب) هانم.. لا أريد أن أفتح عينيها على أمور كهذه.. إنها مجرد طفلة..»

وهنا نسمع صوت الزوج يناديها من قاعة الضيوف، فتسوي ثيابها في عجلة، وتلثمنا

من جديد، وتعود إلى الثرثرة:
- «يا (زينب)!»
- «إن بعلي يناديني.. يا للأسف! كانت قصيدة قصيرة.. والآن أنا مضطرة إلى العودة.. سلام يا بنات... و....»
- «يا (زينب)!»
- «ألن تزورينا أبدًا يا أم (هـ)؟ وعدتني بهذه الزيارة منذ أعوام ولم تفي بها..»
ثم تنظر نحونا وهي تشير لأمي:
- «أمكن امرأة كسول!»
فأقول أنا مدافعة عنها:
- «إنها تضل الطريق لو أبعدتها ثلاث خطوات عن الدار.. فهي لا ترى الشارع أبدًا...»
- «يا (زينب)!»

- «اللعنة!» - تقول وهي تلثمنا للمرة الثالثة -: «على أن أنصرف الآن وإلا كان الطلاق حتميًا!»

ويغادر هذا الإعصار الصاخب الظريف مطبخنا، ونسمع عبارات اللوم من الزوج، وعبارات الاعتذار الحارة من الزوجة..

عندند تتنهد أمي.. وتغمغم:

- «بنت حلال حقًّا!»

وتدمع عيناها.. ولا تسألني عن السبب طبعًا.. إن كل أم في الريف دامعة العينين حين تبكي وحين تضحك.. يقتلها الحزن عن من ماتوا من أحبائها، ويقتلها القلق على من عاشوا من أبنائها.. إن الحزن هو شعيرة أساسية من شعائر الشخصية المصرية خاصة الأمهات.. وهن يشعرن

بذنب كبير حين يسمحن للمرح بأن يتسلل إلى نفوسهن.. تعرف هذا من العبارة الخالدة اللواتي يختمن بها ضحكهن من القلب:

- «اللّهم اجعله خير!»

كأن الضحك ذنب يستحق عقابًا فادحًا..

* * *

يأتي بعد هذا د. (نجيب) من أصدقاء أبي.....

وهو رجل وقور جدًا.. صموت كقبر.. لكنه يصغى دون ملل إلى شكوى أبي التي لا تنتهي عن مشاكله مع النقرس أو التبول..

في مرة جرحت رأسي جرحًا بليغًا وأنا طفلة، وجاء د. (نجيب) حاملًا خيطًا أسود وإبرة.. و.... كان الألم لا يوصف.. لكني تحملت حتى لا أبدو تافهة في عين هذا الرجل الفخم..

كان يدخن الغليون باستمرار.. وكان أبي و(عاصم بك) يدخنان (النارجيلة).. وكان المهندس (محمود) يدخن لفافات التبغ.. لهذا كان لدارنا عبق معين لن أنساه ما حييت، ولا يفارق الغرف وقطع الأثاث إلا في عيدي الفطر والأضحى حين يتم تنظيف البيت كله.. وفتح النوافذ التي قلما تفتح..

عندئذ كنت ترى أمي و(أم شفيق) - الخادمة الريفية قوية العضلات كرجل -

عاكفتين على الكنس وغسيل الأرضيات، بينما فتيات الدار يقمن بفك الستائر وغسل أغطية الأرائك..

لم يكن لدينا في الدار من خدم سوى (أم شفيق) و(هناء).. والأخيرة شابة نحيلة شاحبة كالحرباء، بلهاء قليلًا تعيش في عالم لا يصدّق من الأكاذيب التي تلفقها ببراعة غير عادية..

* * *

تسألني عن اقاربنا..
أقول: إنهم ليسوا كثيرين..
وهؤلاء - غير الكثيرين - يزوروننا لمامًا وغبًّا[3]..

هناك خالي (طه) وخالي (عزت).. وهناك عم لي يأتي كلما مرّت عشرة أعوام، وكل هؤلاء الأقارب يأتون لفترات لا تتجاوز نصف الساعة، وكلهم رسمي جدًا.. لا يمزح.. ولا يسأل عن أحوالنا، أشك في أن أحد هؤلاء يعرف أسماءنا بدقة.. كما أنني لا أذكر لقاء حدث بين أبي وخال لي.. أو أمي وعمي.. ولم أر أبناءهم قط....

* * *

أما عن صداقاتنا فإن لك أن تخمن أنها معدومة..

سنون طويلة قد مضت منذ كانت لي صديقة ما..

أمر عجيب.. لكنه - بالتأكيد - ليس مفزعًا..

فما هو السر الذي يجعل روايتي هذه جديرة بإثارة هلعك؟

أنا لم أفرغ بعد يا د. (رفعت)..

مازلت أحكي لك أسطورتنا..

❋ ❋ ❋

٣ - *معتقداتنا..*

يقع منزلنا عند أطراف القرية..
ويشابه في تركيبه وأثاثه ونمط بنائه الشكل الذي اصطلح الناس على تسميته (دوارًا)..
المساحات الواسعة، وألواح الخشب التي تحمل السقف، والأثاث المتين المريح الذي يفتقر للأناقة، وقد تمزقت أجزاء من كسوة المقاعد وتم تغطيتها بسجادة الصلاة..
كل هذا يحمل طابعًا حميمًا محببًا دون شك..
وحين تغادر الدار تمر عبر فسحة تنتشر فيها أشجار الليمون والبرتقال، وثمّة كرمة

عنب صغيرة.. ثم تعبر بوابة خشبية قديمة إلى أرض فضاء.. خلف هذه الأرض تقع مقابر القرية..

* * *

لماذا يخاف الناس المقابر؟

لم أستطع أن أفهم هذا قط..

لم أعرف في حياتي مكانًا أكثر أمنًا وسلامًا من مقابر قريتي.. أعرفها شبرًا شبرًا وأحفظ كل كتابة ساذجة بالطبشور على شواهدها.. وأعرف عدد المزروعات أمام كل قبر...

لقد أمضيت صباي الأول هاهنا، ألهو مع (س) و(ن)، ونلعب المساكة في هذا

الفضاء العريض..
وها هنا رحت أراجع دروسي قبل امتحان السنة الإعدادية، وقد تناثرت الكتب حولي، ورحت أكرر بلا كلل تاريخ الدولة العثمانية وكيف كان (محمد علي) يلعب بالبيضة والحجر.. كل هذا وأنا أخشى أن يهبط الظلام على فلا أتمكن من مراجعة الكتاب كله.. رائحة زهور البرتقال قادمة من مكان ما، ور ائحة الهواء الجاف، وأعراض الربيع التي تتحرك في روحي المراهقة فتلسعها بألف سوط..
عندنذ كنت أبكى دون سبب..
ولماذا ـ إذن ـ يخاف الناس المقابر؟

❋ ❋ ❋

لكننا لم نذهب إلى المقابر قبل الظهيرة قط..

كنا لا نخاف الموتى.. لكننا نمقت البشر الأحياء كثيرًا.. وكلهم كانوا هناك في فترة الصباح قبل أن تعتلي الشمس متن الأفق..

كنت أعرف بعض الوجوه والأسماء..

فهذه (هند) وهذه (عفاف) وهذه (عواطف) وهؤلاء أمهاتهن.. بعضهن نصف فلاحات مثلنا.. وبعضهن فلاحات تمامًا مثل (أم شفيق)..

لكنهن كن يتحاشيننا بذات الأسلوب الذي نتحاشاهن به.. إن هي إلا هزة رأس عابرة منهن لنا.. وعبارة على غرار:

ـ «كيف حالك يا (هـ)؟ سلامنا للحاجة..»

لم نكن متعاليات.. لكنّ أبي علمنا أن الآخرين شر دائمًا.. وأنه كلما قل عدد معارفك كلما ازددته حرية وسلامًا ..
ربما كان لهذا جذور من صدمته بعد زيجته الأولى.. وبعد التأميم.. والنتيجة هي أننا نشأنا منغلقات كالقواقع.. تعلّمت في ثلاث مدارس، لكني لم أحظ بصديقة واحدة يمكن أن أدعوها صديقة.. كان هناك ذلك الانبهار الأولي بسحري وجمالي.. وتصمم إحداهن على تعرفي.. فلا تظفر مني سوى بالصمت والفتور...
الأسرة.. الأسرة.. هي الشيء الوحيد الجدير بالثقة والذي يستحق أن نعمل جميعًا من أجله..

هكذا ربينا.. وكذا نشأنا.. وهذا هو ما صرناه...

* * *

كانت أمي تؤمن بالسحر كثيرًا..

فهي من النسوة القرويات اللواتي لم ينلن أي تعليم.. وكل ثقافتهن تنحصر فيما سمعنه من جداتهن عن (خاتم سليمان) و(العمل) و(الأثر) و(العفاريت مشقوقي الأعين) و(طاقية الإخفاء).. وما إلى ذلك..

كانت ترى العفاريت في كل مكان.. وتؤمن أنهم معنا في كل ركن من الدار.. وأحيانًا كانت توجه التحية لهم..

فإذا جاء يوم الجمعة تصاعدت رائحة البخور.. ودوى صوت طقطقة الملح..

فإذا مرضت واحدة منا.. أشعلت أمي البخور وراحت ترقيها بعبارات غريبة جدًا معقدة على غرار:

- «يا فسخ يا فسخاني.. امنع عمل اليهودي والنوراني.. واللي له غرض تاني..!»

ثم تحرق عروسًا بدائية تصنعها من الورق، وتغرس في كل موضع من جسدها دبوسًا وهي تكرر عبارات الرقية المسجوعة..

حين ينتهي الاحتراق كنت تجد كتلة من الرماد الأسود لها شكل ما.. أي شكل عشوائي..

عندند تهتف أمي في انتصار إن الرماد اتخذ شكل (أم هند) أو (أم خديجة) أو أي أم أخرى من الجيران.. وتؤكد لنا وجهة نظرها:

- «هل ترون؟ ها هي ذي العينان.. والأنف المحدب.. والشعر المجعد.. إنها هي..»

الواقع أن إيمانها هذا كان يتكفل بجعلنا نرى ما تعنيه.. وتدريجيًا نجد أن الرماد هو بعينه (أم هند) أو (أم خديجة).. وهذا دليل لا يدحض على كونها هي من حسدت مريضتنا أو مريضنا..

أما أن يتثاءب الشخص في أثناء رقيه فهذا دليل آخر على كونه محسودًا..

* * *

في يوم من الأيام جاء صياد حاملًا سلة بها بعض الأسماك التي اصطادها من الترعة المجاورة..

كانت هناك بعض أسماك (القراميط) حية تتحرك وتتلوى.. وكانت أمي تتفحص السلة حين هتفت في هلع:

- «يا للكفرة.. أبناء الكفرة!»

والتقطت بكفها سمكة تتلوى.. ورفعتها في الضوء لترينا إياها..

كانت هناك كتابة على جلد السمكة بحبر لا يمكن إزالته.. ولما وجدتنا لم نفهم بعد، هتفت في جزع:

- «هذا عمل! من أنجس أنواع الأعمال وأبشعها.. الكتابة على جلد (القرموط).. لا يمكن العثور عليه أو فكه.. إن البائس الذي كتب هذا العمل من أجله لا يجد ساعة راحة واحدة..»

وبيد خبيرة وقسوة لم نعهدها فيها.. تناولت سكينًا عملاقًا وراحت تقطع السمكة إلى شرائح..

ثم ناولتها للبائع في تنهيدة خلاص:

- «سأنقدك ثمنها.. لكنّ عليك أن تلقى بها إلى الترعة من جديد..»

هزّ الرجل كتفه في لا مبالاة.. وحمل سلته وانصرف..

هذا هو المناخ الذي عودتنا أمي عليه، وقد يبدو كل هذا نوعًا من السخف

والهراء؛ لكنه كان حميمًا وجزءًا لا ينفصل عن كيانها الطيب القدري.. لهذا أحببنا كل هذا لأنّه منها..

* * *

كان لا بد أن يطفو السؤال على سطح وجدان أمي..
لماذا لم أتزوج بعد برغم بلوغي السابعة والعشرين من العمر؟
بل ـ الأدهى ـ لماذا لم يتقدم لي أحد قط؟!
كانت تعرف الجواب.. كلنا كان يعرف الجواب..
لكنها ـ كالعادة ـ راحت تفتش في دياجير الطلاسم والأحجبة والأعمال المدفونة على عتبات البيوت..
بضع كلمات تبادلتها مع (أم شفيق).. ثم قامت المرأة بما طلب منها.. وجاءنا الشيخ (بسيوني) الذي يقطن على مرمى حجر من دارنا... وهو رجل أشيب معمم خبيث

ا
ل



والتقطت بكفها سمكة تتلوى . . ورفعتها فى الضوء
لترينا إياها . .

رائحة والنظرات.. وأنا لا أمقت في العالم شيئًا مثل هؤلاء النصابين الذين يتظاهرون بالتدين؛ بينما هم يمارسون السحر الذي قرنه الإسلام بالكفر..

جاء الرجل وأشعل الكثير من البخور، وقرأ بعض قراءات زعم أنها باللغة السريانية..، ثم أعلن أنّ هناك (عملًا) مدفونًا في المقابر، وأن إحدى الجارات الحاقدات عليّ قد صنعته لي وأنّ هناك شروطا لاستخراجه..

صحت في أمي بعصبية:

- «ماما.. لن تصدقي هذا السخف!»

- «ش ش ش ش!»

إصبع سبابة على شفتيها ينذرني من التمادي في هرطقتي، وراحت تصيح

السمع لما يقوله هذا المشعوذ..

وحين عاد أبي إلى الدار، صارحته بما حدث اليوم..

كنت أعرف أنّ هذا سيثير إعصار حنقه على أمي.. لكني لم أرد أن يدور هذا الهراء في داره دون علمه.. وعلى الفور نادى أمي، وقد ارتسمت الشراسة على ملامحه.. ثم هتف محنقًا:

- «إذن أنت تسمحين لهؤلاء النصابين بدخول الدار في غيابي.. وتجعلينهم يعرفون من أسرارنا الخاصّة ما لا يرى نور الشمس.. ثم تثرثرين في كل صوب أن ابنتك صارت عانسًا.. إن هذا الرجل كافر يا امرأة.. كافر لأن (من نفث في عقدة فقد كفر)..»

بالطبع لم تفهم أمي معنى (النفث في العقد) برغم أنها تستعيذ بالله من (شر النفاثات في العقد) عدة مرات يوميًا..

كان الدرس قاسيًا مريرًا لكنه ضروري..

ومن يومها لم تعد أمي لهذا الحديث.. لكنى أعرف أنني أسبب لها مشكلة دائمة.. إن العانس القبيحة محتملة.. أمّا العانس الحسناء فأمر لا يمكن السكوت عليه..

المشكلة التالية كانت أختى (س) التي ستتخرج قريبًا.. ولن يطرق بابها عريس.. لماذا؟ كلنا يعرف السبب لكننا لا نعترف به لأنفسنا..

وأمي لا تعترف بكل الهراء المثقف عن استقلال المرأة ودورها البناء في المجتمع.. و... و... إن كل الغرض من

وجود المرأة في الحياة عندها هو أن يتزوجها أحدهم.. وأن تلد وترضع وتربي نساء أخريات يتزوجهن آخرون.

❋ ❋ ❋

الحق يا د. (رفعت) أن لي جانبي العاطفي..

لم لا؟ ألست أنثى من لحم ودم؟

سأتجاوز عن خيالات المراهقة المبهمة التي تمزج حب الطبيعة.. بحب الحيوانات الصغيرة.. بحب الأغاني.. وتصنع من كل هذا كيانًا غامضًا بلا اسم أهيم به حبًّا..

كانت عاطفتي تجد متنفسًا لها في معاونة عنزة تلد.. أو وضع بضع هريرات وليدة

في صندوق من الورق المقوى، والخروج بها إلى الشمس.. أو وضع زهرة في شعري..
والحقيقة أن صورة الرجل في ذهني كانت دومًا صورة أبي.. الأمر الذي كان عسيرًا أن أجده في أي فتى من سني..
ثم بدأت أنمو.. وافهم أنّ هناك رجالًا آخرين غير أبي.. ومن المفهوم أن من حقي أن أحصل على أي واحد منهم عريسًا في اللحظة التي أقرر فيها ذلك..
وكان في قريتنا عدد لا بأس به من الشبان المتعلمين وعلى قدر ما من الثراء.. ومنهم من هو جميل الصورة...
لكن واحدًا منهم لم يتقدم لي.. ولا تسأل عن السبب..

وعندما ظهر (ع) في حياتي؛ كنت قد بدأت أعد نفسي لرحلة الوحدة الأبدية دون رفيق درب ودون أطفال..

كان (ع) وجهًا جديدًا في قريتنا.. مدرسًا شابًا جاء من المركز لمدرسة القرية الابتدائية.. وكان يسافر يوميًا - إذ كانت رحلة الدقائق العشر إلى المركز تدخل في نطاق السفر - رافضًا عدة عروض للإقامة في القرية..

لم يكن متزوجًا، وكان لطيفًا مهذبًا، حرك حلم الزواج لدى كل بنات القرية الحاصلات على شهادة أقل من شهادته.. أو غير المتعلمات اللواتي تمنين لو كان يرغب في زوجة أمية..

دومًا كانت عدسة المجهر مسلطة عليه، وبدأت الفتيات يترددن أكثر من اللازم على المدرسة لاصطحاب أخوتهن.. وراحت الأمهات يزرن المدرسة - بحجة الاطمئنان على الأنجال - ليتفقدنه بنظرة ناقدة مدققة.. هل يصلح لابنتي فلانة؟

كان خجولًا.. وحين يحمر وجهه في هذه المواقف كانت كل أم تقرر أنه يصلح بالتأكيد لابنتها...

إن المدرستين الإعدادية والابتدائية متلاصقتان في قريتي.. وقد اعتدت أن أقصد الثانية في ميعاد الانصراف لأصطحب أخي (ي).. ثم أنتظر (ن) عند خروجها من الأولى.. ونعود معًا إلى الدار...

وكان ضروريًا أن يراني (ع).. وبالتالي يهيم بي حبًّا ولا ألومه كثيرًا على ذلك..

وحين قابلت اخى (ي) في ذلك اليوم عند مغادرته المدرسة؛ كان - كعادته - يرتدي المريولة القذرة التي مسح بها الأرض مسحًا.. وشعره ثائر مبعثر.. والجروح تملأ وجهه وساقيه.. وقد تمزقت يد حقيبته فتدلت الأخيرة على الأرض..

عندما ترى (ي) عندما يدخل المدرسة صباحًا ترى أحد أبناء الذوات المتأنقين.. لكنه لا يختلف عن أترابه ذوي (المخالي) عند مغادرته للمدرسة.. وهذا يسره لأنّه يلغي اختلافه عنهم.. ولأنه - كديدن من في مثل سنه - يعتبر الأناقة والنظافة علامتين على الأنوثة والتدليل.

قال لي (ي) ضاحكًا:

- «الأستاذ (ع) يسأل عنك!»

احمر وجهي - لأني شعرت بالدم يصفر في أذني - وتساءلت:

- «لماذا؟»

- «لا أدري...»

- «وماذا قلت له؟»

- «أجبت عن أسئلته طبعًا..»

لدغته.. واعتصرت أذنه بين إبهامي وسبابتي.. معلنة أنه ليس رجلًا، وأن المفترض ألا يفشي أسرار شقيقاته، ما دام هذا المعلم لا يمت لنا بصلة قربى...

لكني - بيني وبينك يا د. (رفعت) - لم أكن غاضبة إلى الحد الذي تظاهرت به...

* * *

سأوفر عليك الملل إذن، ولا أطيل في وصف محاولات المدرس الشاب لكسر حاجز الخجل والتحفظ كي يتقرب إليّ..

إن الأطفال والحيوانات هم أفضل ذرائع لكسر هذا الحاجز.. وكلتا الطبيعتين متوافرتان في (ي) الذي هو طفل وقرد صغير في نفس الوقت! وكان لا بد من تدرج الحوار بيننا حول (ي).. تحصيله الدراسي.. شيطنته.. إلخ.. إلخ...

وبعد ستة لقاءات كنا قد غدونا متعارفين..

لا أعني باللقاء ما تعنيه اللفظة.. إن هي إلا عشر دقائق وقت انصراف التلاميذ، وسط قطعانهم الثائرة، جوار بوابة

المدرسة، ويتم الحوار هامسًا وسريعًا.. وكلانا ينظر إلى جهة أخرى كأنما يوشك على الرحيل..

هل ملت إليه؟

لا أدري حقًّا... إن اضطراب العواطف في بيئة منغلقة يدعوك إلى خداع نفسك سريعًا.. يكفيك وجود شخص مناسب تُركّب عليه هذا الحشد من العواطف الجاهزة المتراكمة في صدرك..

سرعان ما تظهر أغنيات (أم كلثوم).. وقصائد (ناجي).. والوردة الحمراء إياها.. كأنما كانت هذه الأشياء تنتظر ظهور الشخص المناسب في المكان المناسب، فلا تمهلك لحظة حتى تسأل نفسك: أتراني أحبه حقًّا؟

أنت ناضج يا د. (رفعت) ويمكنك فهمي دون عناء..

قال لي (ع) ذات مرة في لقاءاتنا المسروقة:

- «إن (ي) ولد ذكي.. لكنّ الأطفال يضايقونه..»

- «يضايقونه؟»

- «يسخرون منه.. كأن هناك سرًا ما يتعلق بأسرتكم.. وهم يهددون بإفشائه!»

قلت في ضيق:

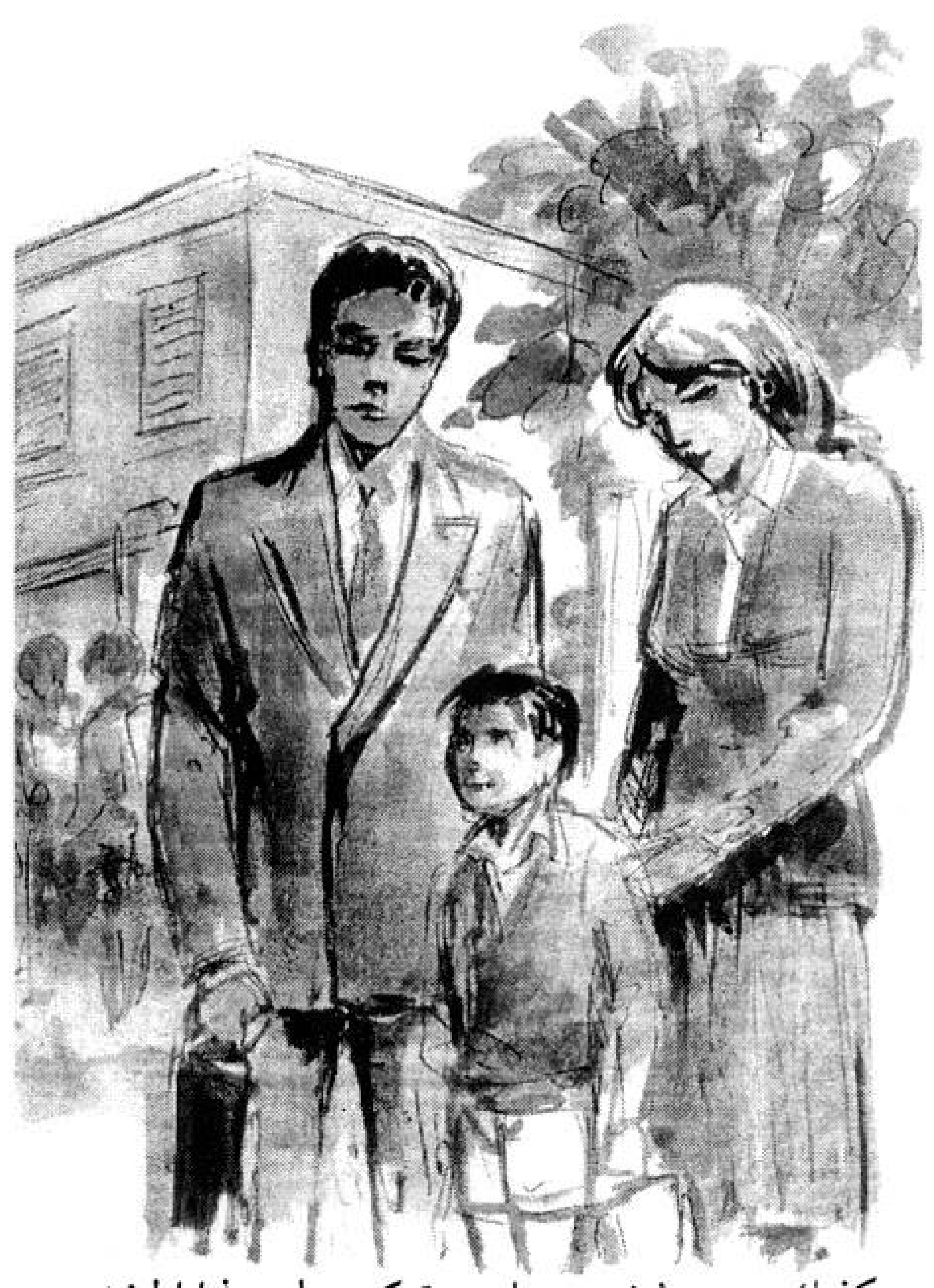
- «لو كان هناك سر فأرجو أن يعلنوه..»

- «لم أقصد مضايقتك.. لكنّ هذا هو الانطباع الذي خلفوه لدي..»

وساد الصمت الثقيل هنيهة.. بعدها كرر أسفه..

كانت هذه هي مشكلتنا..
إننا نختلف عن الآخرين في أشياء كثيرة..
ومن هنا جاءت أسطورتنا.....

❋ ❋ ❋



يكفيك وجود شخص مناسب تركب عليه هذا الحشد من
العواطف الجاهزة المتراكمة فى صدرك . .

٤ - صداقاتنا..

سوف أقص عليك الآن قصة طريفة عن شقيقتي (س)..

أنت تعرف أنها تقيم في القاهرة.. في مسكن للطالبات طيلة فترة الدراسة، حتى إذا جاءت العطلة عادت إلينا..

إن (س) أقل جمالًا مني وأقل ذكاء.. هذه حقيقة.. ربما هي طالبة في الجامعة.. لكنّ الشهادات لا تدلّ على الذكاء أكثر مما تدلّ المسبحة على الإيمان..

لكن (س) أكثر اندماجًا في المجتمع، وأكثر تقبلا لفكرة وجود الآخرين..

* * *

غرفتها مزدوجة في المسكن..
تقيم معها طالبة في كلية العلوم تدعي (نرمين)، وهي فتاة هادئة رزينة صموت..
وفي المساء كانت الفتاتان تجلسان. كل واحدة على فراشها ـ تدرسان وقد انتشرت كتبهما على الفراش، ولا بأس من تبادل بعض الأحاديث.. أو قيام واحدة منهما بمساعدة الأخرى على تصفيف شعرها..
في الحادية عشرة مساء يدق الباب..
وتدخل إلى الغرفة (هيام)...
(هيام) طالبة علوم في عامها النهائي.. جميلة إلى حد لا يصدّق - على حد قول (س) - تتمتع بروح دعابة هائلة..

وسرعان ما تخلع خفيها، وتثب إلى الفراش جوار (س).. ربما تدخل معها تحت الغطاء.. وتصرخ في مرح:
- «البرد قاتل.. إن حجرتكما أدفأ حجرة في هذا المنزل..»
وتنهض (نرمين) ضاحكة لتعد ثلاثة أكواب من الشاي الساخن.. ووجبة مرتجلة من الفول والبيض وأي شيء يتصادف وجوده في الحجرة، فلو وجدت حذاءً قديمًا لأضافته إلى الخليط..
لحظات من المرح لا يمكن أن يمرّ الليل بدونها.. ومن أجلها تنتظر (س) و(نرمين) نهاية اليوم في شوق
إن (هيام) تعاني من أن زميلتها في الحجرة ثقيلة الظل تفتقر لروح الدعابة..

وهي - تقول (هيام) - طالبة طب تثير هلعها بكل العظام التي تكدسها في الحجرة.. عظام بشريّة طبعًا..

- «إن طالبات الطب هؤلاء» - تقول (هيام) - «يفقدن أنوثتهن وشبابهن سريعًا.. يصعب عليّ أن أصدق أن شريكة حجرتي هي فتاة في ميعة الصبا.. بل هي أقرب إلى شيخ طبيب القلب لا يكف عن تفحصى في حكمة من فوق إطار عويناته..»

وتتربع على الفراش لتحسو جرعة أخرى من الشاي وتقول:

- «ألن تأتيا إلى حجرتي أبدًا؟»

فتقول (نرمين) في استبشاع:

- «بعد كل هذا الوصف؟ مستحيل..»

ثم إن حجرتها في الطابق الثالث.. ومنذ أن أنشئ هذا المسكن والعلاقات على غير ما يرام بين طلبة الطابق الثاني وطلبة الطابق الثالث.. فهذا الأخير تعمره طالبات الطب المتحذلقات المغرورات قليلًا.. واللواتي يتضايقن لو لم تناديهن الأخريات بلقب (دكتورة)..

الخلاصة أنّ هذا الثالوث وجد في الصداقة ما ينسيه مرارة الغربة..

❋ ❋ ❋

حادث تافه وقع في كلية العلوم التي تدرس فيها (هيام).. حادث لا أهميّة له

لكنه صخرة تقع في بركة الملل اليومي محدثة دوائر ودوائر..

لقد طلق أحد الأساتذة هناك زوجته، ليتزوج من طالبة عنده تصغره بثلاثين عامًا..

وكان هذا الحادث شهيرًا في تلك الآونة، وتسرب خبره إلى كل الكليات تقريبًا.. وعرفته (نرمين) التي تدرس في كلية علوم أخرى.. وكان لا بد من الثرثرة والقيل والقال..

وحين جاءت (هيام) في تلك الليلة، سألتها (نرمين) وهي تعد الفول إياه:

- «كيف حال الفضائح عندكم؟»

هزت (هيام) كتفها في لا مبالاة:

- «كالمعتاد..»

- «أعني ماذا يقولون عن (م)؟»
و(م) هذه طبعًا هي الطالبة التي تزوجها أستاذها..
لكن (هيام) هزت كتفها من جديد في غير فهم.. وغمغمت:
- «(م) من؟»
- «(م) التي تزوجت من د. (ر)؟»
- «لا أعرف.. أعنى لم يصلني هذا الخبر.. هل تزوجته حقًّا؟!»
وضعت (نرمين) الملعقة في الكسرولة، ودفنت قبضتيها في خصرها واستدارت لتواجه (هيام):
- «إذن أنت الوحيدة في العالم التي لم تعرف هذا.. هل كنت نائمة في الكهف مع كلبك؟»

- «إن جهل المرء بالفضائح يزيده شرفًا.. وأنا لا أعبأ بهذا الهراء..»

تدخلت أختي (س) لتنهي المحادثة.. لكنّ (نرمين) ظلت غير مصدقة أن (هيام) تجهز كل شيء عن الموضوع.. والأستاذ (ر) أستاذ كيمياء.. أي أنه في نفس القسم الذي تدرس فيه (هيام).. وقد دفعتها هذه الدهشة إلى بعض الإجراءات الغريبة..

كانت تملك خبرة كيميائية لا بأس بها - برغم كونها في قسم الجيولوجيا - لذا أمسكت كتابها، وراحت تسال (هيام) عن بعض المعضلات الكيميائية - التي لم تستوعبها في دراستها.. لكنّ (هيام) أعلنت في إصرار أنها جاءت هاهنا لتمرح وتضحك.. ولم تأت لتدرس...

* * *

منتصف الليل بعد ما رحلت (هيام):
في الظلام تجلس الفتاتان مضجعتين كل على فراشها.. وصوت دقات المنبه الرتيبة.. تك تك تك تك!
بعد دقائق همست (نرمين) بصوت ناعس، دعاها إليه شعورها بأن الظلام يجسم الأصوات أكثر من اللازم:
- «(س).. هل نمت؟»
بصوت مماثل همست (س) وقد أغمضت عينيها:
- «لا.. ليس بعد..»
- «أنا أشك في أمر (هيام) هذه!»

مرّت هنيهة.. ثم فتحت (س) عينيها وتساءلت:

- «ماذا تعنين؟»

- «إنها تزعم أنها طالبة علوم.. ومن المستحيل ألا تسمع طالبة علوم يا...»

قاطعتها في سأم متثائبة:

- «هاآآه.... فلنقل إنها لا تحب الشائعات..»

- «ومعلوماتها في الكيمياء.. لا تزيد على معلومات طفل..»

- «وماذا في ذلك؟ إن شخصيّة مرحة كهذه قلما تدرس.. ثم ما الذي تعرفينه أنت عن (الجيولوجيا)؟»

- «لا زلت غير مستريحة..»

ـ «أرى أن النوم علاج ناااااجع للعقول المريضة..»

ونامت (س) تاركة (نرمين) تحدق في الظلام...

وقبل أن تنام بدورها كانت قد أزمعت أمرًا..

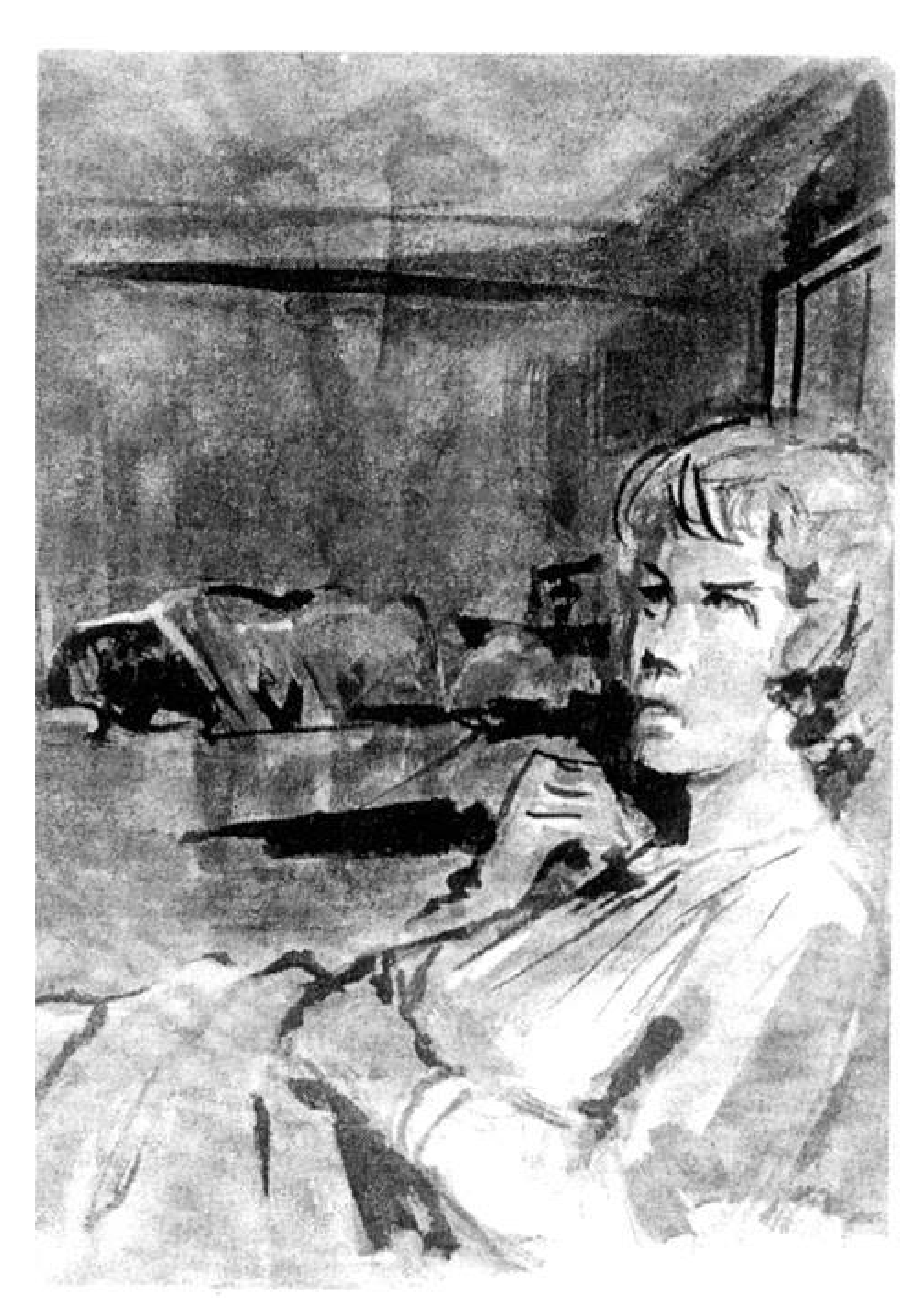
❋ ❋ ❋

كان أول ما فعلته (نرمين) في الصباح قبل مغادرة المسكن، هو أن تمر على مكتب المدير لتسأل عن (هيام أبو الفتوح)..، وكان الحماس شديدًا في الصباح.. لكنّ المدير أخبرها أنّ هناك (هيام) في الطابق الثالث تعيش في غرفة واحدة مع طالبة طب ذات عوينات..

لا بأس.. أراحها هذا قليلًا..

ذهبت إلى كليتها، وحضرت دروس الصباح كلها.. لكن قوانين المصادفة كانت تخبئ لها مفاجأة صغيرة: (عفاف)..

(عفاف) صديقتها وابنة مدينتها التي تقيم هي الأخرى في القاهرة.. والتي تدرس العلوم في كلية أخرى غير كليتها..



ونامت (س) تاركة (نرمين) تحدق فى الظلام ..

كانت (عفاف) في المكتبة تبحث عن مواد بحث طلبه منها أساتذتها، ولم تجد ما تريد في مكتبة كليتها..

وكان عناق.. فقبلات.. فأسئلة لا حصر لها..

- «في أي سنة أنت يا (عفاف)؟ إن الأمر قد اختلط عليّ.. فأنت من هواة الرسوب..»

هزت (عفاف) رأسها.. ولثمت ظهر كفها:

- «حمدا لله.. إنها السنة الأخيرة.. لقد قتلتني دراسة الكيمياء هذه.. قلت لأبي مرارًا إنني لا أصلح سوى للزواج و....»

هنا وجدت (نرمين) الفرصة السانحة:

- «هل تعرفين (هيام أبو الفتوح)؟»

قطبت (عفاف) جبينها محاولة التذكر:
- «(هيام)؟ هل هي زميلتنا؟»
- «بالطبع.. علوم قسم كيمياء.. في السنة النهائية..»
- «لا أعتقد.. ولكن..» - ثم بللت بلسانها شفتها السفلى - «لا.. لا توجد عندنا (هيام).. بالتأكيد.. إن دفعتنا صغيرة ومن الصعب أن...»
ثم أشرق وجهها، وواصلت الثرثرة:
- «ترى هل خطبت؟ ماذا عن المهندس الذي......»
لكنّ ذهن (نرمين) تحول إلى خلية نحل فلم تسمع شيئًا..

* * *

إذن الفتاة مزيفة.. (هيام) ليست كما تزعم..

من هي؟ وكيف تسللت إلى مسكن الطالبات؟ وكيف ظلت تخدعها وتخدع (س) خمسة أشهر كاملة؟

ما هي الاستفادة التي تحصل عليها؟ لا بد من استفادة ما.. ربما كانت (هيام) رجلًا متنكرًا و! اقشعر بدنها للفكرة ثم طردتها سريعًا.. إن (هيام) ودون شك فتاة.. فتاة تخدعهما لغرض في نفسها..

ولكن ما هو؟

* * *

حين عادت إلى المسكن قبيل المغرب، صعدت إلى الطابق الثالث وسألت ساكنة الغرفة الأولى عن غرفة (هيام)..

أشارت لها إلى الباب الخامس.. فقرعته..

سمعت من الداخل من يدعوها لفتح الباب..

كانت هناك فتاتان وكثير جدًا من العظام البشريّة.. أما الأولى فكانت جالسة على مكتب معدني صغير تدرس في كتاب هائل الحجم.. كانت ترتدي العوينات وتبدو كعجوز طيب القلب..

إذن أنت طالبة الطب.. قالتها لنفسها وتأملت الفتاة الأخرى التي كانت تلف شعرها حول أسطوانات (الرولو) أمام المرأة..

سألتها الثانية في ارتياب:
- «هل تريدين شيئًا؟»
- «أبحث عن (هيام)..»
- «أنا (هيام).. وأنت؟»
قالت في ارتباك وهي تغلق الباب ببطء خارجة منه:
- «أبحث عن (هيام أبو الفتوح)..»
- «لا! توجد (هيام عبد المحسن) لو كانت تصلح!»
وهنا كان الباب قد انغلق.. وعادت (نرمين) تهبط في الدرج إلى غرفتها بالطابق الثاني..
إذن الفتاة (هيام) تعرف أمر هذه الغرفة.. ولهذا زعمت أنها تقطن فيها.. هذا يفسر ما

قاله المدير عن وجود (هيام) في الطابق الثالث..

هنا تدخلت الصدفة من جديد في صورة العاملة العجوز البدينة، تلك المرأة التي يجثم الشحم على قلبها فلا تفعل شيئًا تقريبًا، لكنهم يبقونها في المسكن على سبيل التبرك.. اسمها (فاطمة) والطالبات ينادينها بـ (دادة فاطمة).. ويبدو أنها هاهنا منذ الأزل..

كانت المرأة عاكفة على صعود الدرج، تجر أمامها وخلفها قناطير مقنطرة من الدهن حتى كادت تلقى حتفها بسكتة قلبيّة.. فلمّا رأت (نرمين) هشت وبشت لها.. وراحت تلهث تعبيرًا عن المودة..

سألتها (نرمين) بعد تبادل التحيات:

- «هل تعرفين من تدعى (هيام أبو الفتوح) يا دادة؟»
واصلت المرأة اللهاث واستندت إلى (الترابزين).. وقالت:
- «لا يا بنيتي.. لا أحد هنا بهذا الاسم..»
ثم - بعد تفكير - أردفت:
- «كانت هناك واحدة بهذا الاسم منذ أعوام.. كانت جميلة كالقمر خفيفة الظل كالشربات.. طالبة علوم على ما أذكر.. إن السن يتقدم بي ولم أعد أتذكر ما أكلت على الغداء.. ثم داء السكري هذا........»
- «وأين هي الآن؟»
- «بالتأكيد هناك.. حيث لا يعود أحد..!»
- «ماذا تعنين؟»
مصمصت العجوز بشفتيها.. وغمغمت:

ـ «رحمها الله! لقد حملت جسدها الشاب بهاتين اليدين.. ولكن.. حين تكونين في عمري يغدو الموت رفيقا يوميًا لا يثير رعبك.. لماذا شحبت هكذا يا بنيتي؟ اغفري لي هذا الحديث المقبض... ولكن.. لماذا تسألين عنها الآن بالذات؟!»

* * *

الآن عرفت يا (س) كل تفاصيل القصة..

كانت (نرمين) ترتجف كورقة.. وبدت قصتها مهشمة غير مترابطة، فلم تتضح أجزاؤها إلا مع السرد الثالث..

وظلت (س) تتأملها وهي تحكي دون تعليق... حتى إذا ما انتهت من الكلام قالت

لها:

- «دعك من هذا الهراء.. إنها قصص تصلح لإفزاع الأطفال..»

- «حقًّا؟ ولماذا أوشك على الموت رعبًا؟»

- «لأنك تملكين عقل دجاجة يا ملاكي..»

هبت (نرمين) في عصبية.. وصاحت:

- «ربما.. لكني لن أنتظر ثانية واحدة بعد هذا.. سأملأ الدنيا ضجيجًا.. ولسوف أجلب المسئولين ليحققوا مع هذا الـ.. شيء..»

- «كوني عاقلة يا حمقاء.. إن هذا.....»

- «لن أنتظر حتى تدخل هذه الجثة الحية غرفتي!»

واتجهت للباب لتفتحه..

حين دوى صوت الطرقات الرقيقة على باب الحجرة..
طرقات تعرفان صاحبتها تمامًا.....

* * *

٥ - *شقيقنا*

والآن نترك الصديقتين في هذا المأزق غير المألوف.. كي نتعرف بشكل أفضل حياة أخي الصغير (ي) الذي ـ كما قلت لك ـ هو (ديك البرابر) و(آخر العنقود) في بيتنا العامر..

لم يتعلم (ي) بعد القواعد الصارمة لدارنا.. لكنه بدأ يفهم أننا نختلف عن الآخرين إلى حد معين..

كان يعرف أنّ هناك أشياء غير مألوفة تجري في دارنا... لكنه - بحكم سنه الصغير ـ كان عاجزًا عن فهمها..

وفي المساء حين يأتي أصدقاء أبيه، وتتصاعد روائح التبغ ودخان السجائر، ويدوي صوت ضحكات (عاصم بك) المتظرفة..

عندها كان يعرف أن (علاء) و(ناهد) قادمان..

وينادية الصوتان الرفيعان من وراء خصاص النافذة، فيهرع إلى أمّه طالبًا السماح له بالخروج:

- «سألعب مع (علاء) و(ناهد) في المقابر..»

تقول الأم وهي مشغولة في إعداد القهوة للضيوف:

- «هذا لن يكون دون أن تسأل اباك..»

فيتركها ويدخل ـ في كياسة ـ إلى قاعة الضيوف.. ويلتصق في حياء بأبيه الجالس يكمل حديثه مع المهندس (محمود).. ولا شعوريًا يطوق الأب خصره في لطف وهو يواصل الكلام...

يلفت المهندس (محمود) نظر الأب:

ـ «ماذا يريد هذا الرجل الصغير منك؟»

فيهمس (ي) بطلب الإذن في مسمع أبيه..

ـ «الوشوشة عيب.. كرر ما قلت بصوت عالٍ..»

- «أريد اللعب مع (علاء) و(ناهد) في المقابر..»

فينفجر (عاصم بك) ضاحكًا:

- «هل تسمعون؟ لقد ورث الطفل مزاج أبيه السوداوي! ابن حلال مصف! هي هي

هي!»
فيحملق فيه الأب منذرا، ثم يشير للطفل آذنًا له بالخروج:
- «لكنّ - أرجوك - لا تتأخر أو تذهب بعيدًا..»
ويهرع الصبي مغادرًا الدار.. ليجد الطفلين اللذين من سنه ينتظران جوار الباب الخارجي..
وينطلق الجميع - دون كلمة تحية واحدة - إلى المقابر.. وبين الشواهد المظلمة يبدأ المرح.. هل يوجد مكان افضل للعب المساكة؟ هل يوجد مكان أفضل لقفز الحواجز؟
كان (علاء) مهذبًا.. وكانت (ناهد) ملاكًا رقيقًا يخاف كل شيء.. لكنّها لم تخش

المقابر قط..
لم يحاول (ي) أن يسألهما عن عنوانهما.. عن مدرستهما.. عن أبيهما.. لكنه كان يحبهما دون تحفظ.. وكان من طبقة أثرياء الفلاحين التي تماثل طبقته، لذا لم يجد صعوبة في التعامل معهما..
يعرفان كل شيء عن المقابر.. ويعرفان أسماء سكانها واحدًا واحدًا.. لكنهما أنذراه مرارًا بالابتعاد عن الناحية الجنوبيّة - جوار شجرة التوت العملاقة - لأن العجوز (عباس) لا يحتمل ضوضاء الأطفال..
ذات مرة كاد الرجل يفتك بهم...
فهو عجوز خبيث المنظر، له عين انمحى سوادها فراحت تلتمع كلؤلؤة في الظلام،

وقامته محنية، وأطرافه التي أكلها الروماتزم صارت أقرب إلى المخالب..

راح يركض وراءهم وهو يسب ويلعن.. ويقذفهم بالحصى.. حتى أفلتوا منه وكمنوا وراء شاهد قبر عملاق، يلهثون ويرتجفون..

من يومها لم يدنوا من شجرة التوت قط..

كان هناك خطر آخر ينغص لهوهم هو الكلاب السوداء العملاقة ـ المسعورة دومًا ـ التي ابتليت بها القرية، وحين تلقى أحدها كنت ترى عينين تلتمعان في الظلام منذرتين بالويل.. وتسمع هديرًا متوعدًا.. ثم.. تدرك فجأة أن ثيابك ممزقة وساقيك تنزفان.. وأن إحدى وعشرين حقنة في جدار البطن تنتظرك في مستشفى المركز..

لكن - الغريب - لم تهاجمة الكلاب قط طالما كان مع (ناهد) و(علاء).. ولهذا السبب كانا يوصلانه إلى باب الدار بعد ساعتين من اللّهو البريء.. ثم يطمئنان على دخوله ويعودان أدراجهما.. إلى بيتهما الذي يجهل كل شيء عنه...

وحين يعود للدار يجد الضيوف قد أوشكوا على الانصراف.. وتدس (زينب) هانم قطعة من الحلوى في يده، وتربت على رأسه.. عندها يدخل إلى الفراش لينضو ثيابه.. يرتدي منامته.. وينام...

❋ ❋ ❋

أما المشاكل الحقيقية فهي في المدرسة..

إن الأطفال هم ملوك التعذيب في العالم.. وقد كان زملاؤه في الصف يمقتونه حقًّا.. وكانوا يجيدون التعبير عن هذا..

إنه مهندم أنيق الثياب.. وكتبه منسقة.. وحقيبة يده من الجلد..، في حين كانوا جميعًا يرتدون مريولات قذرة متسخة فوق سراويل مناماتهم.. وكان كل منهم يحمل كيسًا من القماش يدسّ فيه كتبه، وكتبهم - عندما تخرجها من الكيس - هي أقرب إلى (الكرنب) منها إلى الكتب؛ بأوراقها المجعدة المكرمشة الملتفة..

إذناه نظيفتان وأنف، خال من المخاط...

لهذا كان هو العدو الطبيعي لأترابه.. وكم من معارك دموية خاضها من أجل الانتقام لكرامته.. ولهذا نجد أنه ـ في نهاية اليوم -

يصير واحدًا منهم في بعثرة الثياب واتساخها..

لم يكن هذا هو السبب الوحيد...

ثمة سبب آخر لا يعرفه حقًّا.. لكنه مهين للغاية.

ولكم من مرة حاول أحد أصدقائه إغاظته قائلًا:

ـ «يا ساكن بيت العفاريت!»

أو يقول واحد آخر مخرجًا لسانه، مستعملًا إحدى يديه كقبضة (الهاون) والأخرى كـ (الهاون) نفسه:

ـ «يا صديق الموتى!»

ولم يكن (ي) يفهم.. ولم يكن ينتظر حتى يفهم..

بل تنطلق قبضته كالقذيفة إلى أي مكان في مساحة سطح صديقه.. عينه.. أنفه.. رقبته.. بطنه...

ويلتحم الجسدان فوق التراب وسط التهليل والتصفير.. وغالبًا لا تحسم المعركة إلا بعصا تنهال عشوائيًا على جسديهما؛ ويمسك بها أستاذ مرهف الحس التربوي.

لكن (ي) ارتاح كثيرًا للأستاذ (ع)....

كان دائم التشجيع له.. دائم الاقتصاص له من معذبيه..

وحتّى في سنه الصغير لم يكن عسيرًا على (ي) أن يفهم أن (هـ) هي سبب هذا الاهتمام الزائد...

لم لا؟ إنّه يحبّ الأستاذ (ع).. فهو لطيف المعشر شديد الحياء.. ولن تخسر الأسرة

كثيرًا لو أنه صار فردًا منها...
دعا الله في صلاته ـ التي تعلمها من أبيه ـ أن يتحقق هذا الحلم.. وصارحني مرارًا بذلك، فكنت أزجره في شيء من خشونة.. لكنى سررت في سرّي لأنّه يرى ما نراه....

❋ ❋ ❋

في ذات يوم نادته أمي حيث كانت في المطبخ تعد القهوة. - دومًا هي تعد القهوة ـ للضيوف..
انتحت به ركنًا جوار الموقد.. وركعت على ركبتيها ليتمكّن من سماعها وهي تهمس.. وسالته:

- «هل أنت ذاهب إلى المقابر اليوم؟»
- «طبعًا.. حين يجئ (علاء) و(نا...)»
- «حسن.. أريد منك معروفًا..»
وتلفتت حولها بحذر.. ثم عادت تهمس له:
- «يوجد قبر بلا مزروعات أمامه.. أريد منك أن تنبش التربة التي حوله بحثًا عن كيس من المشمع.. كيس ملفوف حول أشياء ما.. هاته لي ولكن لا تفتحه.. هل سمعت؟ لا تفتحه.. احمله لي دون أسئلة ودون أن يشعر بك أحد»
- «حسن...»
قالها شاعرًا بأهميته..
وفي الحال جاء صديقاه.. فذهب معهما إلى المقابر كعادته..

وكان القبر المقصود هناك.. لم يكن الأمر عسيرًا.. وبعد تنقيب طويل على ضوء عود من الثقاب وجد ضالته، فدسها في جيبه وقلبه يخفق كالطبل..

وعاد إلى الدار فناول (الكنز) لأمه.. فلثمته شاكرة.. وملأت كفيه بحلوى النعناع من العلبة التي تضعها في (نملية) المطبخ.. العلبة العزيزة التي عليها صورة غزالة تتأمل الأفق، وتحمل اسم الخواجة إياه....

رآها ـ والحلوى في فمه ـ تتأمل اللفافة.. ثم تغمغم في لوعة:

ـ «الكفرة أولاد الكفرة! إذن كان الشيخ (بسيوني) صادقًا.. وكنت على حق! هذا (عمل)..»

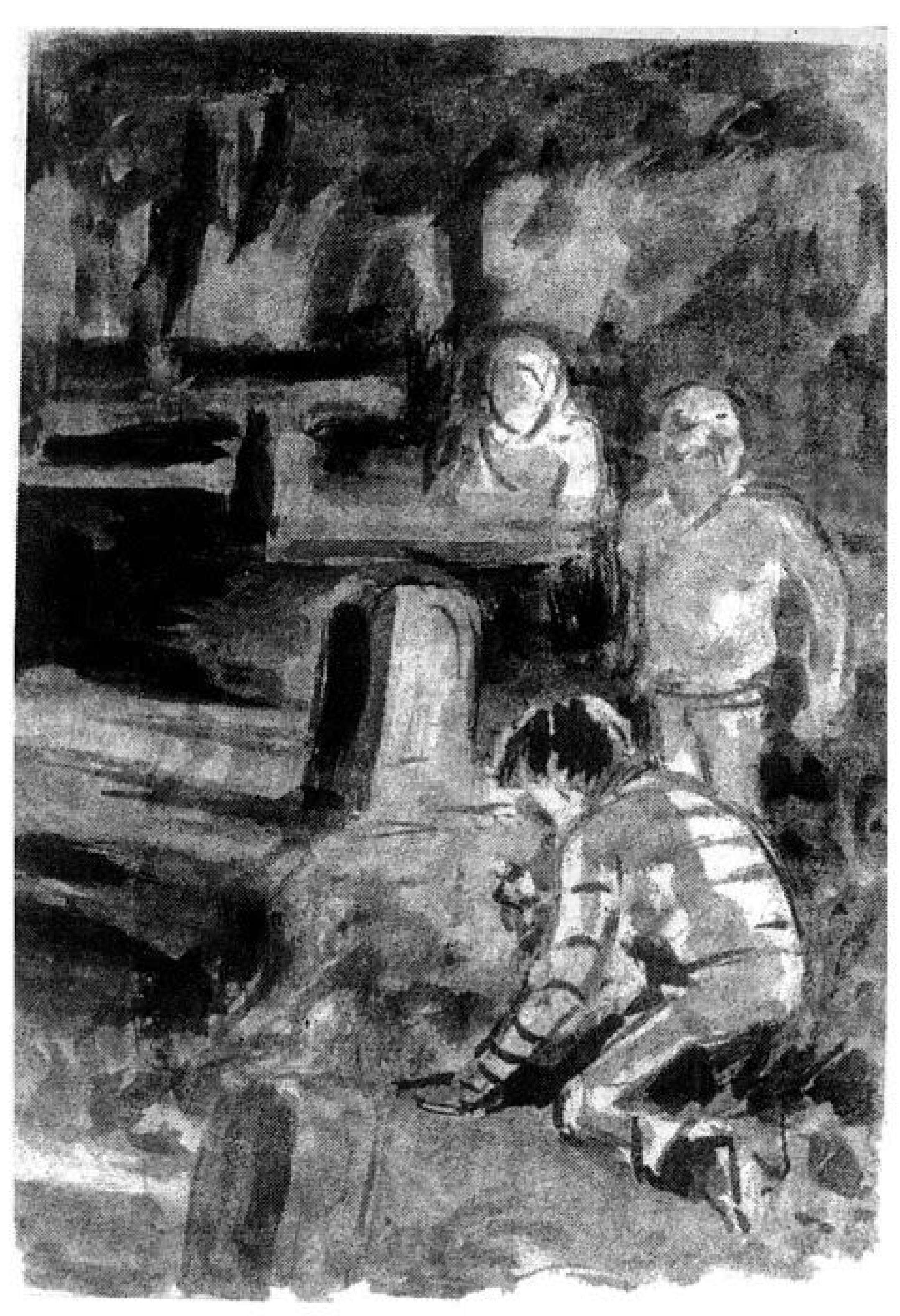
بعد هذا بأسبوع تقدم الأستاذ (ع) طالبًا يدي!

❋ ❋ ❋

لا أريد هنا أن أبدو حاسمة يا د. (رفعت)..

قلت لك ما حدث، وأنا أعرف أن لقوانين المصادفة دورًا لا بأس به.. ثم إنني خير من يعرف الشيخ (بسيوني).. وأعرف أنه بالتأكيد هو من دسّ هذا (العمل) لي.. لكنّ يجده فيما بعد.. ويأخذ أجرًا لا بأس به مع الحلوان..

لكن.. تصوّر لحظة لو لم يكن (بسيونى) هو من دسّ هذا (العمل) لي.. إن هذا يعني أنّ هناك من يكرهني بجنون.. ويعني أنّ هناك سحرًا شيطانيًا فعالًا يفوق ما نتصوره..



وبعد تنقيب طويل على ضوء عود من الثقاب وجد ضالته .

* * *

(ع) يعرض إمكانياته وظروف أسرته في دقة، وباتزان يثير الإعجاب.. لقد كان شابًا رصينًا حقًّا....

أبي ينصت له واضعًا ساقًا على ساق.. كان مجاملًا حازمًا متحفظًا يشتري ولا يبيع كما ينبغي لأبي أن يكون...

(ي) يدخل الحجرة ويخرج منها متوترًا - كأنما هو العريس - وقد ارتسم الفخر على ملامحه.. فهو - ككل الأطفال - يحسب المعلم كائنًا ديناصوريًا أسطوريًا مكانه المدرسة، لا يغادرها ولا يزور ولا يُزار.. ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام.. وهو يشعر

بأن له دورًا في جعل هذا الكائن الأسطوري يتنازل ويدخل دارهم....
تسأله أمي في همس مسموع:
- «هيه؟ ماذا يقولان؟»
- «يتحدثان..»
يقولها وهو يصعر خده لها في غرور.. ثم يتركها عائدًا إلى غرفة الضيوف وقد رسم سمات الخطورة على وجهه..
ونسمع صوت (ع) يكمل كلامه:
- «.. وهكذا ترى يا سيدي أننا أسرة طيبة.. أبي فعل كل شيء كي يجعلنا شرفاء محترمين.. لكنه لم يترك لنا مليمًا بعد وفاته.. كنا نعيش معه (من اليد إلى الفم).. وبعد رحيله كان عليّ أن التحق بمعهد متوسط لأنفق على إخوتي.. وأن

أضحي بحلم الجامعة الذي كان سيجعلني مهندسًا كما تمنيت..»

لم يكن أبي راغبًا في معرفة الوضع المادي للفتى.. فثروته تسمح له بالإنفاق على أزواج بناته وأبنائهم وأحفادهم.. إن كل الآباء يزعمون أنهم (يشترون رجالًا) دون أن يعنوا ما يقولون حقًّا.. لكنّ أبي كان هو مشتري الرجال الوحيد والأخير في هذا العالم...

كان يهمه معدن الفتى...

ثم - وهذا الأهم ـ كان يبغي معرفة مدى تأقلم الفتى مع نمط حياتنا - الحياة التي يحاول جاهدًا أن يغدو فردًا فيها....

هل سيقبل حين يعرف أكثر؟

هل سيظل على حماسه العنيد حين يتكلم الآخرون؟
حين يعرف طرفًا من أسطورتنا؟

❋ ❋ ❋

٦ - مخاوفنا..

حينما رحل الفتى ظل أبي جالسًا في مقعده الأثير بعض الوقت.. ثم أمر الخادمة أن تعد له (النارجيلة).. وأن تدعو سيدتها إلى القدوم إليه...

مسحت أمي يديها في المنشفة، وخرجت - هامسة بالدعاء - من المطبخ، لتجلس إلى جوار أبي جلستها الخائفة على طرف المقعد التي هي إلى الوقوف أقرب.

دقائق مرّت ولا شيء سوى قرقرة الماء في (النارجيلة)، ورائحة التبغ الزكية تفعم القاعة..

لقد ظل أبي متمسعًا بـ (النارجيلة) كآخر معالم الفخامة وأعتقد أنه كان يأخذ منها ما هو أكثر بالتأكيد من الدخان التركية التي كان يعيش فيها قبل الثورة.. كان يأخذ الوضع الاجتماعي إذا فهمت هذا التعبير...

قال لها بعد صمت طال:

- «عرفت ما دار بيننا بالتأكيد..»

- «سمعته - طال عمرك - من (ي)..»

- «ورأيك؟»

- «شاب ابن حلال.. ومؤدب.. ولا أرى ما يمنع من...».

- «المشكلة هي أنه لا يعرف..!»

قالها في عصبية جعلته يشرق بالدخان فيسعل.. ثم أردف:

- «كح كح! إن هذا الفتى أحمق.. ليس من البلدة.. ولم يسأل عنا.. ولم يخبر أحدًا بقراره هذا...»

- «إن النصيب حين يجيء......»

- «بل هو غش وتدليس.. لو كان هذا الفتى راغبًا في الزواج من (هـ) فعليه أن يعرف الخلفيات كلها.. بعدها نتفاهم.. لا أريد أن يقول إنني خدعته فيما بعد...»

في جزع هتفت الأم:

- «لكنّ هذا يعني ألا يعود..»

- «هذا أشرف من الغش.. عانس شريفة هي خير من مطلقة أو زوجة معتوه..»

صمتت المرأة على مضض..

كانت تخدع نفسها منذ البداية.. وعلقت كل تعاسة ابنتها على شماعة السحر.. لكنّها

تعرف من البداية أن السحر بريء من هذا.. وإن ابنتها لن تتزوج بسحر أو بدونه...

* * *

في المساء الأكثر توغلًا؛ جلست في حجرتي أمام المرآة أمشط شعري وأتأمل وجهي.. وجه الحوريّة الذي أهيم به حبًا...
جاءت (س) أختي وجلست جواري على حافة الفراش، وهي تقضم قطعة من أجاصة (كمثرى)؛ وظلت تتأملني برهة.. ثم قالت:
- «لم يأت الضيوف اليوم..»

- «لقد نهاهم أبي عن زيارته الليلة.. فهو يعرف بقدوم (ع)..»
في شرود قالت:
- «لو أنه رآهم فلن يلاحظ شيئًا غريبًا..»
- «لكنّ الأمور تتضح بعد حين.. هل نسيت ما حدث لـ (نرمين) في تلك الليلة في مسكن الطالبات؟ ما إن دخلت (هيام) البائسة من الباب حتى راحت (نرمين) تصرخ وتولول.. ووقفت على الفراش مرددة في هستيريا: (لا تلمسيني)! عندها لم تجد (هيام) بدًّا من الفرار.. فالاختفاء من حياتنا تمامًا..»
برغمي ابتسمت ابتسامة عصبية.. وسألتها:
- «وماذا حدث لـ (نرمين)؟»

- «عولجت لفترة من الانهيار العصبي.. الجميل في هذا أن أحدًا لم يصدّق حكايتها، خاصة أنني أنكرت كل شيء.. ثم إنها تركت المسكن نهائيًا.. فضلت السفر اليومي من وإلى بلدتها..»

- «كان حظًا سعيدًا..»

- «لكنه لن يتوافر دومًا.. إن (ع) سيعرف.. وعندئذ...»

رفعت خصلات الشعر من فوق جبيني.. وغمغمت في حيرة:

- «لعمري لا أفهم.. لماذا يمقت الناس الموتى؟!»

السؤال الخالد الذي يتردد في ذهني منذ الصبا...

لماذا يمقت الناس الموتى؟!

يبدو لي سؤالًا له لا نهائية الكون وغموضه..
لماذا يمقت الناس الموتى؟!

* * *

- «لأنّهم حمقى.. هذا هو كل شيء..»
قالتها أختي (ن) وهي تتقلب في الفراش..
كان أخي (ي) مازال ساهرًا يحملق في السقف حين هزّها لتصحو، وسألها عن السبب الذي يجعل الصبية يتحرشون به في المدرسة...
قال لها في حيرة:
- «يقولون إننا (بيت العفاريت)، وما إلى ذلك..»

- «هم أحرار فيما يقولون ما دمنا لسنا كذلك.. وعلى كل حال أنا لا أرى في العفاريت إهانة ما.. والآن.. نم.. نم!»

* * *

جاء المساء التالي..

وكانت هناك حركة غير طبيعية جهة المقابر.. المشاعل والكلوبات مرفوعة فوق الأعناق.. وجموع الفلاحين تزحف حول صندوق خشبي مغطى ببساط أخضر.. والغبار يتصاعد في الهواء.. فترسم عليه الأضواء ظلال القوم الذين يمشون الهوينى ضاربين الأرض بنعالهم ضربًا..

إن للمسيرات التي تحمل المشاعل تأثيرًا دراميًا رهيبًا.. ربما لم يستطع أحد فهمه والتعبير عنه مثلما استطاع المخرج (حسين كمال) في المشهد الختامي الضخم لفيلم (شيء من الخوف)..

وتدريجيًا بدا أن القرية كلها تمشي في هذه الجنازة، ربما باستثناء أبي الذي كان يتعالى على المناسبات الاجتماعية كلها...

لكن (هناء) خادمتنا البلهاء عادت لنا بالخبر اليقين، وكانت في دار أمها بالجهة الأخرى من البلد، جاءت تقول لنا إن الميت هو (عبد الصمد قريطم).. فلاح من أبناء القرية توفي في صراع بالمسدسات مع عصابة لصوص حاولوا سرقة الجمعية

الزراعية.. واللصوص يعدون بإلباس رجال القرية طُرحًا في المرّة القادمة..
مع (هناء) يكون تفسير الأحداث سهلًا.. الخبر صحيح حتى عبارة (فلاح من أبناء القرية توفي).. أما ما يلي هذا فلا صحة له.. وهو وليد خيالها المريض الذي لا يكف عن الفبركة والتأليف..
وحين انتهت مراسم الدفن على ضوء (الكلوبات) ساد الهدوء المكان.. وإن لم يأت ضيوفنا في تلك الأمسية، وبالطبع لم يخرج (ي) للعب مع (علاء) و(ناهد)...

❋ ❋ ❋

في الليلة التالية جاء الضيوف..

أولًا وصل المهندس (محمود) وامرأته، التي هرعت ـ كعادتها - إلى المطبخ لتبدا الثرثرة مع النسوة هناك...
ثم جاء د. (نجيب) صموتًا كعادته.. وعلى الفور تصاعدت رائحة تبغ الغليون السكرية قليلًا، والتي تعلن عن وجوده قبل أن يوجد...
بعدها وصل (عاصم بك) برائحته العطرية (الدسمة) التي تجثم على روحك كأنك التهمت طبقًا ضخمًا من الزبد وحدك....
كان هناك رجل نحيل مهذب يرتدي عوينات سميكة، ولا يكف عن الثرثرة في السياسة.. وجه جديد هو.. لكن (س)

عرفت من مكانها في المطبخ أن اسمه (حامد).. وهو محام كما يبدو...
بعد قليل حضر رجل..
كان فلاحا يرتدي جلبابًا ممزقًا وحافي القدمين.. وقد بدا عليه الارتباك.. بالتأكيد لم يبد متناغمًا مع هذا الوسط...
سأله أبي في رفق:
- «من أنت يا أخي؟»
كان صوت الرجل خفيضًا مدغوم المقاطع وهو يجيب بلهجة ريفية:
- «أنا (عبد الصمد قريطم)..»
عاد أبي يسأله:
- «منذ متى؟»
- «أمس.. عصرًا..»
- «حادث؟»

- «نعم.. عند الساقية..»
- «إذن تعال وخذ مكانًا.. لابد أنك تشعر ببرد شديد.. هل تشرب شايًا؟»
- «أكون لك شاكرًا يا بك..»
رفع أبي عقيرته آمرًا بالشاي.. هنا تدخل (عاصم بك) في عصبية وهو يزيح مبسم (النارجيلة) جانبًا:
- «هذا غير لائق.. من المفهوم أننا لا نرحب بالفلاحين ها هنا.. وهذا الرجل فلاح.. يعني تملأ البراغيث ثيابه ولا يفهم سوى في الماشية.. وأنا أرفض أن ينضم إلى مجلسنا!»
كان الارتباك يغمر (عبد الصمد) فلم يجد كلمات يقولها.. وطقطق د. (نجيب) بلسانه

لا تدري أمؤيدًا أم معارضًا.. أمّا أبي فقال في فتور:

- «(عاصم بك).. انا أرحب بالجميع هنا.. ولئن كان الفلاحون يجدون أن جلستنا هذه لا تريحهم ولا تناسبهم فهذا شأنهم.. لكني أقبل الجميع ولا أتعالى على أحد لأنني فلاح ابن فلاح..»

ثم باشمئزاز أردف:

- «أمّا زلت متعاليًا؟ عرفت الفارق بين حياة الزيف وحياة الحقيقة وما زلت متعاليًا؟ هل توجد موعظة بعد الموت؟»

قال (عاصم بك) في كبرياء:

- «منذ أربعين عامًا كنت أجلس مع دوق (ويلز) نتمازح.. والآن أنا مرغم على الجلوس مع (عبد الصمد قريطم)!»

- «لست مرغمًا على شيء..»
كانت (أم شفيق) قد جلبت الشاي للفلاح.. فتربع على البساط السميك يجرعه في عرفان..
قرر المهندس (محمود) أن يبدد جو التوتر الذي ساد المكان، فأخرج وريقة من جيبه.. وقال في مرح:
- «دعوني أتل عليكم قصيدتي الأخيرة.. كتبتها في مناسبة الذكرى الخامسة لوفاة السيد رئيس مجلس الإدارة:
ولّى الذي قد كان نبراسا
من بعده ساد الأسى الناسا[4]»
ثم توقف متلمظًا.. وقال باستمتاع:
- «السينات كثيرة في الشطر الثاني، مما يعطي الأسلوب جرسًا موسيقيًا محببًا.. إنّه

نوع من الجناس الناقص..»
وعاد يواصل (معلقته) المقيتة هذه....
- «ولّى الذي ملك الجسارة والحجا
ولّى الذي ملأ الفؤاد حماسا»

هنا استدار أبي إلى الجالسين.. وقال دون أن يستأذن الرجل:
- «ثمّة عريس جاء يطلب يد (هـ)..»
- «مرحى!»
- «ألف مبروك!»
- «إنّه لخبر يستأهل قصيدة طويلة..»
قال أبي وهو يداعب شاربه الفخم شاردًا:
- «المشكلة هي أنه لا يعلم شيئًا..»
قال (عاصم بك):
- «ليس لديك ما تخفيه.. القرية كلها تعلم.. لابد أنه عرف كل شيء»

- «أؤكد لك أنه لا يعلم...»
قال د. (نجيب) في تؤدة وهو ينظف غليونه:
- «إذن لابد أن تصارحه.. بل يجب أن يلقانا ويستمع إلينا ونستمع إليه.. هذا من حقه..»
قال المهندس (محمود) متضايقًا قليلًا من بتر قصيدته:
- «هذا طبيعي.. مادمت تنوي أن يقيم في دارك بعد الزواج.. أظن أنّ هذا ما تنتويه..»
قال أبي في شرود:
- «نعم.. فهو لا يملك مسكنًا ولن يوفر واحدًا خلال أعوام..»
- «إذن عليك بمصارحته دون تردد..»

وساد الصمت..
لكن الصخب بدأ في عقل أبي..
غدًا يأتي الفتى مع شقيقته وأمه للتعارف؛ ولوضع النقاط على الحروف للمرة الأولى..، فكيف يمكن تدبير هذه المصارحة؟!

❋ ❋ ❋

واصل القط المواء، فأحضرت له بعض اللبن الدافئ في إناء صغير ووضعته جواره...
لم أكن واثقة حتى هذه اللحظة من حقيقته.. هل هو قط حي أم هو من ذات عينة ضيوفنا؟ إن التأكد من هذا مستحيل

بالنسبة للحيوانات العجماء التي لا تستطيع التعبير عن نفسها..

أحيانا كانت حيلة الألم تجدي..

كنت أغرس دبوسًا في جسد الحيوان، فإذا صرخ عرفت أنه حي يرزق.. وإلا كان معنى هذا....

إن التجربة مرضية دون شك.. فقد انغرس الدبوس بكامله في عنق القط لكنه ظل يلعق اللبن غير مبالٍ بي......

دخلت (س) الحجرة فوجدتني عاكفة على إطعام الكائن الصغير فركعت على ركبتها تمسح على عنقه.. وسألتني:

- «هل هو حقيقي؟»

- «تعنين: هل هو حي؟ بالطبع لا..»

ولثمت عنق القط في حنان.. وأردفت:

- «إنّـه ليس القطـ.. بل هو شبحـه!»

....

* * *



لم أكن واثقة حتى هذه اللحظة من حقيقته . . هل هو قط
حيّ أم هو من ذات عينة ضيوفنا ؟ . .

٧ - ضيوفنا..

في تمام السابعة مساء دق جرس الباب..
فتحته (أم شفيق) ليدخل منه (ع) وامرأة شابة بدينة هي شقيقته الكبرى (م).. ثم عجوز ضئيلة الجسد ترتدي ثيابًا لا بأس بأناقتها بالتأكيد هي أمّه...
دخلوا إلى قاعة الضيوف، فجلسوا.. وعرفنا أن معهم سيارة أجرة تنتظر بسائقها خارج الدار.. فهو لم يكن ليجد مواصلات إلى المركز حين تنتهي هذه الجلسة..
جاء أبي فصافحهم.. وسره ما بدا على الأخت والأم من ملامح الأصل الطيب

والمودة البالغة.. أناس طيبون لا يملكون شروى نقير.. هكذا خطر له لكنّ هذا لم يمنعه من تكرار:

- «خطوة عزيزة يا حاجة!»

وكانت المرأة تملك عددًا هائلًا من الردود التي لم نسمع بها.. على غرار (أعز الله مقدارك)، (مؤاخذتك معك)، (أطال الله عمرك) ترد بها على كل عبارة مجاملة ببراعة منقطعة النظير...

أما الشقيقة فراحت تقلب عينيها في أرجاء القاعة، و(ع) ظل يرمق رقعة معينة من البساط في تركيز حتى كاد أن يثقبها.. وقد احمر وجهه كالطماطم..

بعد قليل دق جرس الباب...

وظهر وجه (عاصم بك).. ثم المهندس (محمود) ثم زوجته.. ثم د. (نجيب).. ثم (عبد الصمد).. ثم ذلك المحامي الحيي (حامد) وقد اتجه كل منهم ليصافح الجالسين، في حين يقوم أبي بالتعريف الموجز البليغ..

ترى هل لاحظ (ع) والمرأتان أن أيدي القادمين باردة كالثلج؟

ربما.. لكنّ المؤكد هنا أنهم لم يفهموا علاقة كل هؤلاء بالموضوع، موضوع شخصي كهذا.. وهم مجموعة غير متجانسة لا يوحى أفرادها بأنهم أقارب (هـ)...

قال أبي وهو يعود للجلوس:

- «هم أخوة أعزاء..»

قالت الأم:
- «أخوة السعد والهناء..»
مع هذه المرأة تشعر أنك تلعب لعبة تنس مع لاعب ماهر.. يجيد صد كل كراتك، كل عبارة تقال لها تملك هي ردًا جاهزًا عليها...
ثم إن أمي دخلت لتصافح المرأتين وتلثمهما.. وبإشارة جانبية من أبي انسحبت النسوة إلى الداخل.. على حين ظل الرجال جالسين يتبادلون النظرات....
قال أبي في رزانة:
- «إن الأستاذ (ع) شاب مهذب ينتظره مستقبل لا بأس به.. وقد جاء لطلب يد ابنتي (هـ)..»
لكنّ (ع) لم يكن ينظر نحو أبي..

كانت عيناه مثبتين على (عاصم بك).. (عاصم بك) الذي مد أصابعه في الفحم المشتعل في (النارجيلة).. ورفع - في هدوء - قطعة فحم ملتهبة.. وراح ينفخ فيها حتى تأجّجت نارها.. ثم أعادها بنفس الهدوء إلى مكانها..!

أبي يواصل الكلام:

- «عليكم.. إن (هـ) هي ابنتي وأنتم أعمامها جميعًا.. لهذا لم أرد لهذا الموقف أن يمرّ دون أن....»

عينا (ع) تتجهان لتتفحصا د. (نجيب) الذي أمسك بالسكين الذي نقطع به الفاكهة.. وراح - دون هوادة - يغرسه في فخذه مرارًا وتكرارًا.. كأنما يسلي نفسه في أثناء ملل الحديث!

احمرّ وجه (ع) وازداد توترًا.. جلس على طرف المقعد يقلب عينيه في القوم.. وعلى لسانه ألف سؤال..

وأبي مازال يتكلم:

- «.. تشاركوا فيه بالرأي السديد.. الذي....»

هنا تصلبت عينا (ع) على المهندس (محمود).. فرآه يمارس عملًا لا يمكن اعتباره لائقًا.. ولا يصدر عن شخص مهذب حي.. لكنه يمكن أن يصدر عن ميت دون لوم كثير...

كان (محمود) عاكفًا على لصق اللحم المتساقط من وجهه في مكانه... وقد بدا عليه الضيق لاضطراره لهذا العمل غير اللائق!

كان هذا كافيًا.. ووثب (ع) من مقعده ليتراجع بضع خطوات إلى الوراء.. ثم هتف في رعب وعيناه تتشبثان بمحجريهما بصعوبة:

- «هـ.. هذا.. أ.. أنتم لستم بشرًا..»

لم يبدّل أبي من جلسته.. وبنفس الرزانة والتؤدة قال:

- «أنصحك أن تهدأ قليلًا يا بني.. هذه هي الحقيقة.. إن هؤلا القوم ليسوا بشرًا.. أحياء!»

- «إ.. إذن هذا.. هذا يعني..»

- «نعم يعني..»

- «.. إنكم.. بسم الله الرحمن الرحيم!»

- «لم تقل إلا الصدق!»

تراجع الفتى للباب أكثر.. وأوشك على أن يولي الأدبار.. لكنّ إصبع أبي الحازم أوقفه في موضعه:

- «لحظة.. لو خرجت من هذا الباب فلن تدخل منه ثانية.. ثم إن تصرفك يعكس أنانية مفزعة.. هأنتذا تفر من بيت الأشباح دون أن تتساءل عما يحدث الآن لأمك وأختك!»

توقف الفتى.. ورفع يديه في توتر صائحًا:

- «هذا صحيح.. أمـ... أمي.. ماذا فـ.. فعلتم بها يا أنذال؟»

طقطق د. (نجيب) بلسانه معترضًا.. ولوح (عاصم بك) بالمنشة في ضيق.. أمّا المهندس (محمود) فقال في فتور:

- «تحشم يا فتى.. إن فرصتك في نيل رضانا تتضاءل بسرعة هائلة.. وأعتقد أنّ هذا اللسان البذيء لا يغري بالحوار..»
قال أبي مهدئًا النفوس:
- «صبرًا يا إخوان.. إن هذا الفتى مصدوم.. وكل شيء مباح لمن أفقده الرعب صوابه..»
ثم تناول مبسم (النارجيلة) ودسه في فمه.. وقال بعد أن سحب بضعة أنفاس:
ـ «أنا لست منهم يا (ع).. أنا شخص حي مثلك.. لكنى أستضيفهم في داري.. ولهذا قصة طويلة سأحكيها لك لو عدت إلى مقعدك.. أريد منك أن تكون رجلًا جديرًا برجولته..»

بخطى متثاقلة عاد (ع) إلى المقعد.. وجلس جلسة هي إلى الوقوف أقرب.. وتساءل في توتر:

- «أمي.. أختى.. هل هما؟»

رفع أبي كفه مطمئنًا:

- «بخير طبعًا.. هما مع زوجتي وبناتي وكلهن حيات طبيعيات.. نحن لا نطمئن إلى أن ترى النساء ما رأيته أنت.. فهن يفقدن الوعي ويولولن ويصبن بالجنون وكل مالا نتمنى حدوثه..»

دفن (ع) رأسه في كفيه.. واهتز قليلًا:

ـ «إذن كان ماقالوه عنكم صحيحًا!»

ـ «من قال؟»

- «زملائي أهل القرية.. و(فرّاش) المدرسة.. كلهم قالوا هذا لكني لم أصدق

حرفًا.. أنا أومن بالعلم فحسب..»
- «ربما كان هناك علم يصف هذه الظواهر.. لكنه علم وليد لم يبلغ أشده بعد.. ليس العلم الوحيد هو (ثابت بلانك) وتكافؤ الصوديوم وتشريح الصرصور.. هناك علم يتحدث عما وراء الطبيعة لكنه لم يُقتن بعد.. وحتمًا لم يُكتب..»
ثم راح أبي يحكي قصته.. القصة التي خلقت أسطورتنا.
قال أبي وهو يناول (المبسم) لـ (عاصم بك):
- «في شبابي كنت أعبث وأصدقائي كثيرًا في هذه الأمور.. كنا معدومي الخبرة والمسئولية، لهذا رحنا نلهو حول الحدود الخطرة للحياة والموت.. اعتدنا تحضير

الأرواح ولم نتعلم كيفيّة صرفها.. النتيجة هي أننا صرنا محاصرين.. وجُنّ اثنان من أصحابي وانتحر ثالث.. أمّا أنا فقد عقدت معهم صفقة.. سيكون عليّ وعلى من يأتي من ذريتي أن يقبل استضافة أشباحِ الموتى.. خاصة هؤلاء الذين ماتوا حديثًا ويشعرون بالغربة والحيرة في عالمهم الجديد... معي يشعرون بالدفء الإنساني ويشعرون لبعض الوقت بأنهم ما زالوا أحياء يرزقون..»

ووضع ساقًا على ساق وضم عباءته على كتفيه وأردف:

- «من يومهم والموتى - أو أشباحهم - جزء من عالمي.. بيتي مفتوح لهم عند مجيئهم ليلًا.. يمضون معي أيامًا..

شهورًا.. ثم يرحلون ويأتي آخرون غيرهم..، كل أبنائي تربوا وسط هؤلاء الزائرين الليليين.. لم يتعلم واحد من أبنائي أن يخاف منهم أو يسيء لهم بكلمة تجرح شعورهم (إن الأشباح شديدة الحساسية حقًّا).. وكل أبنائي يعلمون أن الأشباح ستزور بيوتهم حين يكبرون؛ لأن هذا هو قدرهم..»

وابتلع ريقه كأنما عادت إليه ذكرى أليمة:

ـ «لا أكتمك سرًا أنّ هذا هو سبب طلاقي من زوجتي الأولى.. لم تتحمل المرأة هؤلاء الزوار كل ليلة، وأوشكت على الجنون.. ثم إنني آليت أن أعيش طيلة عمري جوار المقابر لأن هذا أقرب مكان إلى أصدقائي.. ولم ترض المرأة بهذا

وانفصلنا.. إن بناتي يعرفن قصة مختلفة عن طلاقنا لكنّ هذا هو السبب الوحيد.. والآن أنا متزوج من فلاحة طيبة.. فلاحة من طمى هذه الأرض التي لا تعرف فارقًا بين حي وميت.. إن الريفيين ـ كأجدادهم الفراعنة - لا يرون في الموت سوى رحيل إلى أرض أخرى.. سفر.. ويتحدثون عن موتاهم كأنهم أحياء يرون ويسمعون كل شيء.. لهذا لم ترفض هذه المرأة الطيبة حياتي.. بعد فترة من الذعر صارت جزءًا من هذه الحياة.. وأنجبت لي أطفالًا علمتهم أنّ هذا هو الصواب ولا صواب غيره..»

ثم مال برأسه نحو (ع) وتساءل:

ـ «ما هو رأيك في كل هذا؟»

لا جواب من (ع)..

- «لم أرد خداعك.. كان من الممكن أن أطلب من ضيوفي عدم المجيء إلى هنا.. أو كنت أجعلهم يأتون ولكن لا يقدمون هذا العرض الشائق.. لكنى أردت أن أطلعك على البيت الذي طلبت الدخول فيه.. وأن أريك نمط الحياة الذي ينتظرك.. فهل مازلت راغبًا في (هـ) بعد ذلك؟»

صمت (ع).. لم يجرؤ على رفع رأسه ليرمق من حوله.. بعدما تأكد من كونهم أشباحًا..

كان لونه كلون الجثث.. والواقع أن من يدخن الحجرة كان سيخاله هو الشبح والأحياء هم من حوله.

هنيهة مرّت.. فبرهة.. ثم همس بصوت مبحوح:

- «أرجو أن تنادي لي أمي وأختي...»
صفق أبي بكفيه يأمر الخادم أن تدعو السيدتين، لأن الأستاذ (ع) يريد الانصراف..
وجاءت المرأتان والحبور يملأ اعطافهما.. فقد كان التعارف مع نساء الأسرة و(زينب) هانم ناجحًا تمامًا..
فلما رأته وجه الفتى الشاحب المتهالك آثرتا الصمت.. وقررتا أن تعرفا ما حدث - وهو غالبًا غير سار - في طريق العودة..
تمت المصافحات سريعًا.. واتجهوا إلى الباب، وهما تعدان بتكرار الزيارة مرارًا.. وأن البيت سيكون واحدًا إن شاء الله..

كان (ع) منهارًا تمامًا.. كدمية (ماريونيت) انقطعت خيوطها.. وقد سحبته المرأتان من الباب سحبًا ورأسه يترنح كأنما انقطعت العضلات التي ترفعه فوق العنق..

وحين انغلق الباب ساد الصمت...

بعدها قال د. (نجيب) في وقاره المعتاد:

- «لن يعود..»

قال أبي بنفس الوقار:

- «لم يساورني شك في هذا.. لكنه رجل شريف على كل حال..»

قال المهندس (محمود) في قلق:

ـ «ماذا لو ملأ الدنيا صخبًا.. وراح يثرثر بما رأى؟»

- «لن يتكلم.. وإذا تكلّم فما الذي سيضيفه إلى كل الأقاويل التي تملأ القرية؟! كل الناس تعرف أن الأشباح تزور بيتي.. والشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها..»

قال (عبد الصمد) حيث تربع على البساط يعبث في قدميه:

- «لقد أذيناك حقًّا يا بك..»

قال أبي في طلاقة:

- «لا تقل هذا.. أنا نفسي لم أعد أطيق الآخرين.. كل هذا الغرور والسخف.. أنتم فقط عرفتم الحقيقة ومدى ضآلة الإنسان.. لهذا أجد أن لديكم نضجًا هائلًا يناسبني..»

قال (عاصم بك) في لزوجة:

- «ما زلت أكرر عرضي..»

- «لا تعد لهذا السخف.. أزوج ابنتي البكر من شبح؟ وشبح ماجن متصاب مثلك؟ مستحيل..»

قال المهندس (محمود) وهو يخرج قصاصة ورق من جيبه:

- «يمكنني أن أسمعكم قصيدة لا بأس بها عن زواج الشيوخ من شابات..»

- «هل هي (الغراب - يا وقعة سودا - جوزوه أحلى يمامة؟)»

- «بل هي قصيدة عمودية بالفصحى.. أقول فيها:

زفوا الربيع إلى الشتاء فماتا

والدود من زهر المروج اقتاتا[5].

.... إلخ...»

ترى ماذا فعل (ع)؟

وماذا قال لأسرته بعد ما عرف أسطورتنا؟

....

❋ ❋ ❋

٨ - مصيرنا..

سائق عربة الأجرة (عباس) بشاربه الكث وسوالفه الطويلة، بدا غير مستريح لهذا البيت.. لهذا دخل سيارته وأغلق زجاجها عليه.. وأدار المذياع ليصغي لمحطة (أم كلثوم)..

وكما قال لـ (ع) فيما بعد يصف لحظات انتظاره بالخارج:

- «كلاب سوداء كبيرة كانت تأتي من كل صوب.. وتقف في مواجهة البيت تنبح.. كأنما هناك ما يثيرها..»

ثم اتسعت عيناه وأردف:

- «ثم جاء طفلان - ولد وبنت - مرّا بين الكلاب دون وجل.. بل إن الكلاب تراجعت حينما رأتهما.. و...»

ورأى نظرة عدم تصديق في عيني الأم.. فقال في حماس:

- «أقسم بالله هذا ما حدث.. أنت تعرف أنني أقلعت عن الحشيش والبوظة وكل صنف يغضب الله... ثم إن الطفلين وقفا جوار إحدى النوافذ، وراحا يناديان من يدعي (ي)..»

وأمسك عجلة القيادة بكلتا يديه.. وأردف:

- «لم يظهرا ما يدل على أنهما لاحظا وجودي.. لا أدري كيف..»

لكنّ (ع) كان يصدّق هذا...

يصدق ما هو أكثر وأفدح منه...

* * *

سألته الأم حيث جلست في المقعد الخلفي وراءه:
- «ماذا حدث؟ هل تشاجرتم؟»
قال لها وهو يرمق الظلام بالخارج، وأشباح الأشجار تتسابق على الجانبين:
- «دعك من هذه السيرة يا أماه.. لن أعود إلى هذه الدار ما حييت..»
تدخل السائق مشجعًا وهو يشعل لفافة تبغ:
- «خير ما صنعت يا أستاذ (ع).. سيجارة؟ لا... إن هذا البيت أثار القشعريرة في جسدي.. إن قلب المؤمن

دليله، وأنا مؤمن ولله الحمد.. صحيح أنني كنت أتعاطي الحشيش لكني الآن لا أفعل.. أنا مؤمن.. وهذا البيت ليس مريحًا.. بالتأكيد ليس مريحًا..»

لم تعلق الأم.. وواصلت السؤال:

- «هل رأيت شيئًا ضايقك؟»

غمغم وهو يسند جبهته إلى زجاج النافذة البارد:

- «قلت لك أن تنسي هذا الموضوع..»

- «لا يوجد ما يستحيل إصلاحه..»

- «إلا هذا يا أماه.. إلا هذا..»

لاحت بيوت المركز من بعيد.. فراح يعبث في جيبه باحثًا عن النقود التي سينقد بها السائق..

خرجت من جيبه زهرة حمراء لم تذبل بعد.. ونسيها هناك..
كانت هناك في دار (هـ) مزهرية ملأى بزهو حمراء يانعة.. بالطبع.. ففي بيتهم تعود الزهور الذابلة إلى الحياة.. أشباح بشر وأشباح كلاب وأشباح زهور.. كل شيء جائز.. والزمن ذاته يتجمد...

❋ ❋ ❋

زهرة حمراء تلفظ أنفاسها على أسفلت الطريق الزراعي.
هل رآها أحدكم؟

* * *

لماذا يا (ع)؟ لماذا؟
كنت قد بدأت أهيم بك يا أحمق....

* * *

خبر سار أعلنه (عاصم بك) في الليلة التالية..



أشباح بشر وأشباح كلاب وأشباح زهور . . كل شيء جائز . .
والزمن ذاته يتجمد !

إنه قد صار مستعدًا للرحيل الآن.. ولن يعو للمجيء في الليالي المقبلة.. خبر سار لأنّه يعنى أن الرجل قد نضج وتقبل فكرة الموت.. وسارّ لأن (عاصم بك) كان ضيفًا مزعجًا يحمل عيوب الأحياء كلها.

لكنّ الفراق أليم دومًا..

ودموع حارة سالت من أبي وهو يعانق الرجل مودعًا.. كذا عانقه الآخرون في حرارة..

قال (عاصم بك) وهو يصلح من وضع طربوشه:

- «لقد عرفت أسعد أيام حي...أ... أسعد أيامي في هذا البيت.. وعرفت معنى الصداقة الحقّة.. إنكم تختلفون عن كل الأنذال الذين تخلوا عني في حياتي..

وتركوني أموت بالسكتة القلبيّة دون أن يستدعوا الطبيب.. كنت أمثل لهم عجوزًا لا نفع من ورائه..»

قال أبي محاولًا تغيير مجرى الحديث:

- «وأين ستقيم؟ في الخرائب؟»

- «بل في القبر ذاته.. فهو مريح جميل.. لعله أفخم قبور هذه القرية المنكودة.. وإن كنت أمقت رؤية العظام التي تحول جسدي إليها..»

- «كلنا ذلك الرجل يا عزيزي..»

وتعانقا من جديد.....

تساءل د. (نجيب) وهو ينظف غليونه:

- «ماذا عن ذلك الشاب (ع) الذي كان هنا بالأمس؟»

قال أبي وهو يريح يده على كتف (عاصم بك):
- «يقول (ي) إنّه تغيب عن المدرسة.. أعتقد أنه سيتغيب لفترة وبعدها يطلب نقله إلى قرية أخرى..»
- «هذا ليس مستغربًا..».
وفرغ الأصدقاء من الوداع..
واتجهوا نحو باب الدار ليعود كل منهم إلى مكانه.

❋ ❋ ❋

لكن (ع) عاد إلى المدرسة..
في ذلك اليوم كنت هناك واقفة كعهدي بانتظار (ي).. حين رأيت المدرس الشاب

قادمًا نحوي يجر رجله في تردد.. وكان ينظر إلى الأرض عازمًا على أن يصطدم بي (بالصدفة)..

واصطدم بي فعلًا.. فرفع وجهًا باسمًا نحوي وهتف:

ـ «(هـ)؟ يا لها من مصادفة!»

تأملته في صمت ولم أقل شيئًا..

ما الذي يبتغيه بالضبط؟ هو لن يتزوجني كما هو واضح.. وبالتالي لم يعد هناك معنى للمجاملات.. إن عدم زواجك من امرأة ما، لهو أكبر إهانة يمكن وصفها.. وليس بعد ذلك بعد...

قال لي معاتبًا:

- «لم تخبريني..»

ـ «بم؟»

- «بما قاله أبوك؟»
- «لأنك لم تسألني.. ولست مطالبة بتعليق لافتة تقول إنني أستضيف الأشباح..»
مرّت برهة صمت.. بعدها غمغم (ع) في حيرة:
- «لم أعد أدري.. إنني أميل إليك كثيرًا لكنّ كل هذا كثير.. كثير جدًا.. إنّه يفوق الطبيعة ويفوق خبرات البشر.. وبعد كل هذا تجدينني جبانًا لأنني لا أقبله؟ مستحيل أن يقبله أحد!»
قلت في كبرياء وأنا أرمق الجهة الأخرى:
- «لم أطالبك بشيء ولم أطالب الآخرين بشيء.. أنت حر في قبول (تنزانيا) على خارطة العالم أو عدم قبولها.. فهذا لن يغير

شيئًا.. (تنزانيا) موجودة بالفعل.. وستبقى كذلك...»

- «أردت أن أفسر لك فحسب..»

- «هذا مجهود لم يطلبه أحد..»

- «لقد أحببتك حقًّا..»

- «الجميع يحبونني ولا حيلة لي في هذا..»

هنا كان (ي) قد وصل.. وحيّا أستاذه في فتور...

فقبضت على كفه في حزم وابتعدنا...

* * *

ولكنني - حين عدت إلى داري - لم أعد أملك ذات الكبرياء المتوقد.. وخطر لي أنه

قد يكون على شيء من صواب...

إن عالمي لغريب.. شاذ.. وليس ذنبه ألا يتمكّن من قبوله.. من قال إن الموتى الذين يزورون دارك ليلًا موضوع يحتمل المناقشة؟

إننا ـ في تماسكنا الأسري ـ قد ظلمنا العالم الخارجي كثيرًا.. وفرضنا عليه أن يعيش بمقاييسنا وإلا كان عالمًا رديئًا..

تمسّح القط في ساقي..

فأزحته عني بشيء من اشمئزاز..

إن كل هذا يناقض الطبيعة.. لهذا هو منفر وغريب.

وفي المساء بدأت الدموع تبلل وسادتي للمرة الأولى..

وتذكرت قصة ماتت منذ أعوام...

* * *

مثلما جاءت (هيام) لتثرثر مع (س).. ومثلما يجيء (علاء) و(ناهد) ليلعبا مع (ي)؛ كانت (ريما) تأتي لدارنا ليلًا كي تدرس معي..

كانت (ريما) في سني - الثالثة عشرة وقتها - حزينة شاحبة لا تبتسم أبدًا.. وكان هذا يفزعني.. فالأطفال والمراهقون الذين لا يضحكون مرعبون دائمًا.

لكني - تأدبًا - لم أكن أظهر رعبًا.. وكنت أجلس جوارها على الفراش، ونضع كتب الرياضيات والجغرافيا والتاريخ كومة واحدة جوارنا.. الأدهى هو أن أبي كان

يغلق الباب علينا كي لا يعطلنا شيء عن التحصيل! وحتّى لا أستطيع الفرار...

وكنت أتأمل عينيها الذابلتين.. وشحوبها.. وأتساءل عن سر اهتمامها بالتحصيل إلى هذا الحد؟ لم تكن مقبلة على امتحان بالتأكيد.. لكنّها تمارس كل عاداتها وهي حية مثلنا...

وكانت الفكرة تملؤني ذعرًا على ذعر....

الآن أسترجع الذعر ذاته، وأوقن أن حياتنا لم تكن طبيعية قط.. ولن تكون...

آه! لو أكون أخرى... لو أنفصل عن هذه الأسرة وأبدأ في مكان جديد سحيق خالٍ من الموتى وسيرتهم....

لكني لا أعرف لنفسي حياة أخرى.. ولا أناسًا أخرين..

❋ ❋ ❋

اغفر لي لحظة الوهن هذه..
هأنذا أسترد قواي، وأعود إلى حبي والتحامي باسرتي..
إن من يأبى أن يكون منا لا يستحق أن يكون منا.

❋ ❋ ❋

في المساء رحت أتأمل وجهي في المرأة...
يا للجمال الباهر ويا للسحر! لكنّ كل هذا بلا جدوى.. كزهرة بارعة الحسن تنمو

فوق قمة جبل، فلا يراها أحد ولا ينتفع بها أحد، ثم تذبل وتموت..

كل هذه الحياة عبث طويل مرهق، ينتهي بأن أموت وأتردد في صورة شبح على دار (س) لأفزع زوجها لو صار لها زوج...

لن أعرف مذاق الأمومة.. ولن أدغدغ طفلًا رضيعًا أعرف أنه جاء من أحشائي أنا..

لن أراه وهو يكبر ويخطو خطوته الأولى على الأرض..

ولن أبحث له ـ في صرامة ـ عن زوجة تناسبني أنا لا هو..

وانفجرت في البكاء...

* * *

لا أريد الاعتراف بهذا...

أنا خجول من التصريح.. لكنى مرضت جدًا وهزلت في الأيام التالية.. وكأن جسدي يأبى أن يشارك إرادتي التحدي...

رحت أقيء مرارًا.. وأعاف الطعام..

وامتلأت حجرتي برائحة البخور.. ورقتني أمي عدة مرات، تثاءبت مللًا في إحداها مما جعلها توقن بأنني محسودة...

وسمح أبي لـ د. (نجيب) بأن يفحصني..

كان على أن أتحمل أنامله المثلوجة على بطني.. وأن أقاوم حقيقة أن من يكشف عليّ ليس حيًا...

ً

لكن د. (نجيب) كان يجيد مهنته حقًّا.. عرفت هذا من أمي فيما بعد...
قال لأبي في قاعة الضيوف:
- «إن أعراضها ليست جسمانية.. إنها أعراض نفسية تمامًا.. أعراض اكتئاب تفاعلى حاد..»
- «سبحان الله! وتقيء وتهزل؟»
- «الاكتئاب هو سرطان النفس..»
تساءل أبي وهو يسترخي في مقعده:
- «والحل؟»
- «الاكتئاب التفاعلي لا يزول إلا بزوال السبب.. إن (هـ) تعاني رتابة الحياة وانغلاقها.. فلا أصدقاء لها.. والخطاب ينفرون من هذه الدار كما حدث مع المدعو

(ع).. إن الحل يمكن في إبعادها من هنا.. أو - واسمح لي بهذا - تزويجها!»
صاح أبي في حنق:
- «تزويجها؟ هل تقول إن ابنتي؟!»
رفع د. (نجيب) يده مقاطعًا:
- «إنها سنة الحياة ودورتها البيولوجية التي حتمها الخالق.. لقد خلقها الله كي تتزوج وتعمر الأرض مع زوجها.. وليس لهذا علاقة بأساسها التربوي.. وحين نتحدى سنة الله هذه يكون المرض النفسي أبسط ما نلقاه..».
حك أبي ذقنه مفكرًا:
- «كلام لا بأس به.. ولكن ماذا عساي أن أفعل؟ هل أدور على الديار أطلب عريسا؟»

- «إن الفتى الذي تقدم لها منذ أيام مناسب للغاية.. وأحسبها متعلقة به إلى حدٍ ما برغم مكابرتها.. لم لا تحاول معه ثانية؟»

- «أحاول؟ وكرامتي؟ ماذا لو رفض؟»

- «إن الأمر يستحق المحاولة..»

هنا نهض (عبد الصمد) من مجلسه على البساط.. وقال في حماس:

- «دعه لي يا سيدي.. أنا أعرف كيف أقنعه!»

....

❋ ❋ ❋

٩ - أسطورتنا..

حدث هذا حين كان (ع) عائدًا من المدرسة...

كانت دروس الفترة المسائية قد انتهت: وقد بدأت الشمس تنحدر إلى الأفق لتغفو بعد يوم مرهق من العمل....

يمشي (ع) جوار الترعة قاصدًا موقف السيارات، حيث تحتشد تلك الأشياء المتهالكة من القرن الماضي.. سيارات كانت فاخرة في الأربعينات ثم أعطبها الزمن وفتتها.. لكنّها ظلت تتحرك..

بعربة من هذه وثلاثة قروش يعود إلى المركز يوميًا.. حيث يتناول وجبته

الأساسية، ويصلي ويغفو في الفراش المتهالك إلى الصباح..

كان يومًا طويلًا أرهقه...

وفي الظلام لم تكن الرؤية واضحة لعينيه المتعبتين..

لكن هناك دومًا سيارة أخيرة تنتظر آخر الذاهبين إلى المركز.. بعدها تنعزل قريتنا عن العالم تمامًا..

الطريق صار محفورًا في ذهنه بعد كل المرّات التي قطعه فيها.. فهنا البقال (سليمان) يدخن الجوزة على دكة جوار محله.. وهنا الكلب العجوز يغفو على باب دار.. وهنا جذع النخلة المقطوع الذي وضعوه كجسر على ضفتي الترعة، والذي يلهو فوقه الصبية لا يهابون السقوط في

الماء، ويسميه أهل القرية (القحف) كأنه معلم أثري من معالم قريتهم.. ثم عدد من الجاموس عائد من الحقل تتقدمه طفلة صغيرة ضامرة كالقملة حافية القدمين. سبحان الذي سخر هذه الوحوش لطفلة يمكن أن تتهشّم لو داسها حافر واحد....

ثم المنحنى جوار هذا البيت الطيني..

وتمر في حارة ضيقة تملؤها الكلاب.. لكنّ حذار من أن تدوس ذيل أحدها.. إنها على العموم مسالمة اعتادت وجوده....

و..........

❋ ❋ ❋

كان العملاق يقف في الظلام...

في يده (نبوت) هائل الحجم يرفعه منذرًا..
وتردد الصوت العميق الرهيب يقول:
ـ «اذهب إلى البك واسترضه!»
وثب قلب الفتى إلى فمه.. وتساءل في حيرة:
- «مـ.. من أنت؟»
- «أنا واحد ممن أكرمهم البك.. لهذا أنا مدين له.. عليك أن تعود وتطلب يد (هـ) هانم!»
تراجع الفتى إلى الوراء.. وبهلع هتف:
- «إذن.. إذن أنت واحد من!»
دنا العملاق من دائرة النور الشاحب، فاستطاع (ع) أن يرى ملامحه إلى حدٍ ما..

لقد كان جالسًا على البساط في تلك الأمسية!

أطلق صيحة واستدار ليفر..

عندئذٍ شعر بشيء يحمله من ظهره.. وقدماه ترتفعان عن الأرض فراح يركل ويتملص..

- «عُد للبك واطلب يد ابنته.. وإلا....»

صرخ (ع) مستغيثًا:

- «هذا لن يكون..!»

- «لا تتمسك برأيك...»

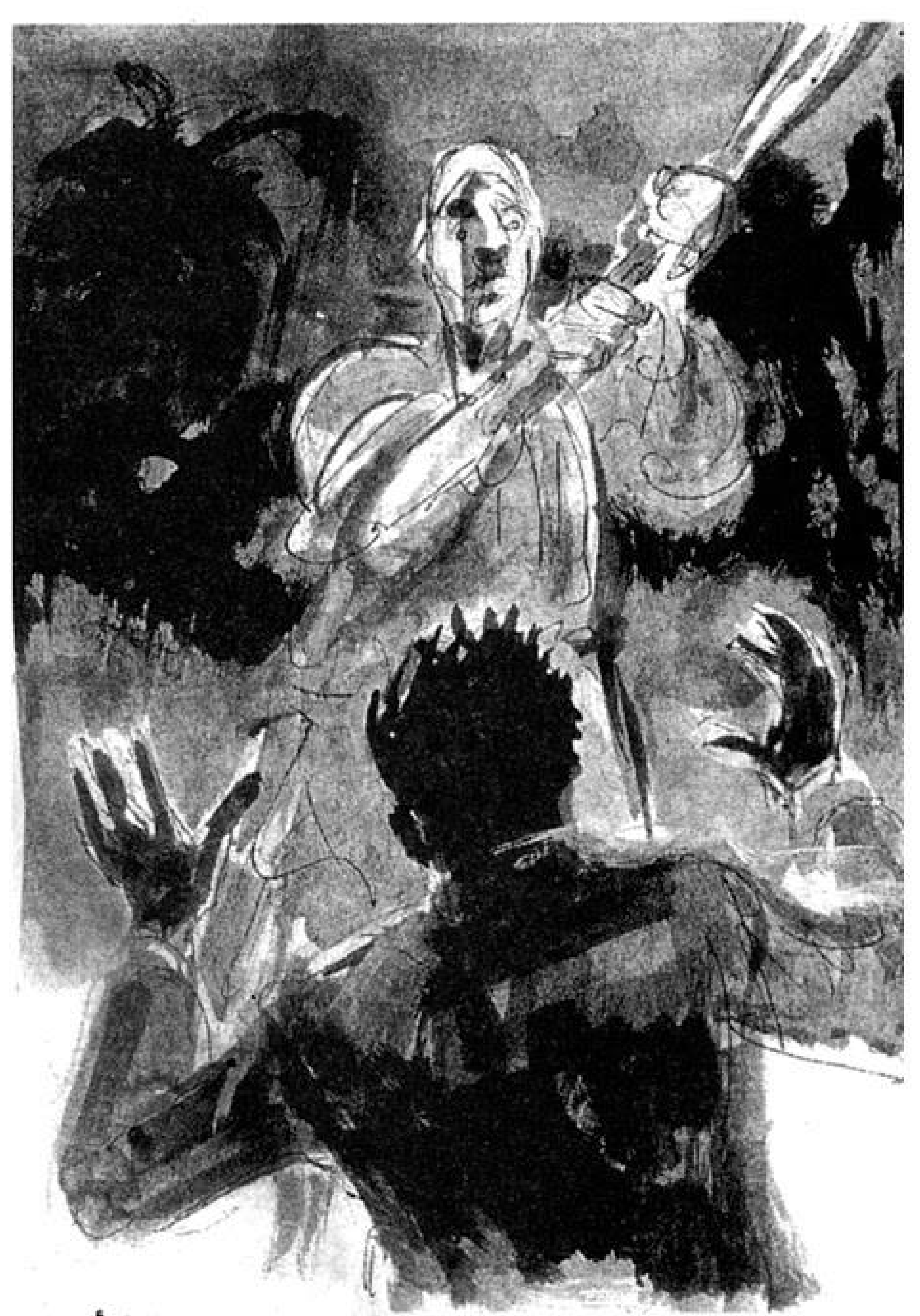
- «لا!..»

في اللحظة التالية أدرك أنه يرتفع في الهواء.. وأنه يغوص في بئر عميقة مظلمة...

كان (الترانش) الذي تحشد فيه مياه المجاري - فالقرية ليس لها نظام صرف صحي - مفتوح بفعل فاعل في هذا الزقاق الضيق.. وبالتالي غدا خطرًا مريعًا على الغافلين..

لكن (ع) لم يدرك - وكيف يدرك؟ - إنّه هو بالذات يهوي في البئر المظلم كريه الرائحة....

* * *



دنا العملاق من دائرة النور الشاحب ، فاستطاع (ع) أن
يرى ملامحه إلى حدّ ما . .

مر يومان والقلق يعم الجميع...

كثيرون جاءوا يبحثون عن (ع).. وتم سؤال الجميع.. لكنّ أحدًا لم يدر بالإجابة..

كل الشواهد تقول إنّه غادر المدرسة مساءً كعادته.. لكن السائقين ينكرون جميعًا رؤيته ليلتها..

لقد رآه البقال العجوز وبادله التحية.. معنى هذا أنه فقد في مكان ما بين متجر البقالة وموقف العربات.

لكن البحث لم يسفر عن شيء.. يوجد (ترانش) منسي في هذا الزقاق لكنه مغلق من سنين.. وغطاؤه محكم يعجز رجلان قويان عن إزاحته.. إذن هو غرق في الترعة..

لكن البحث لم يسفر عن وجود جثته المتشمعة المنتفخة التي تمنى رجال الشرطة أن يجدوها لتنتهي القصة...
ابنك مفقود يا سيدتي.. خرج ولم يعد.. ولا نرى ما يمنع من أن تنشر صورته في الجرائد مع نداء إنساني..
انتحر؟ لا نظن.. حتى ولو فشل في الحب كما تقولين..
إن جثث المنتحرين لا تتبخر.. ولابد أن تجديها في مصرف.. أو جوار شجرة.. أو وسط المزروعات..
كلا.. لم ينتحر ابنك.. نرجح هنا أنه قد هرب.. فرّ إلى مكان ما لا يعرفه فيه أحد.. وبالطبع سيعود.. كلهم يعودون بعد حين...
فقط تجملي بالصبر والسلوان..

*   *   *

في الأمسية التالية في دارنا:
جاء ضيوف أبي الواحد تلو الآخر...
المهندس (محمود).. وزوجته..
المحامي.. (عبد الصمد).. د. (نجيب).
ثم جاء آخر الضيوف...
كان شابًا وادعًا يبدو الخجل على محياه..
فما إن رآه الجالسون حتى هبوا واقفين:
- «أنت؟!»
احمرت أذنا الفتى.. وهمس بصوت مبحوح:
- «نعم.. جئت أنضم لمجلسكم..»
تأمله أبي في شك.. وغمغم:

- «إن العالم كله يفتش عنك دون جدوى.. هن أنت واثق من كونك ميتًا؟»
لم يرد (ع).. مدّ أنامله إلى النار في الفحم.. والتقط جذوة وهشمها بأنامله في حركة درامية ذات معنى....
قال أبي وهو يعود للجلوس:
- «إذن أنت ميت.. ولكن متى وكيف؟»
رفع (ع) إصبعًا متهمًا وجّهه نحو (عبد الصمد).. وهتف:
- «قتلني هذا الرجل.. رماني في (ترانش) مفتوح..»
- «هذا هو السر! لهذا لم يجدوا جثتك قط! ولهذا أنت هنا.. لقد وجد لك (عبد الصمد) قبرًا دائمًا في القرية.. ولولا هذا

لدفنت في المركز بعيدًا عنا.. لماذا فعلت هذا يا (عبد الصمد)؟»

حك الفلاح المذكور رأسه من تحت طاقيته.. وقال في شيء من حرج:

- «أردت أن أرغمه على المجيء إلى هنا يا بك..»

نظر أبي إلى (ع) وتساءل:

- «وهأنذا قد جئت.. هل تحس حقدًا على قاتلك؟»

قال (ع) في شرود:

- «لا أدري.. من الصعب أن يحقد ميت على ميت.. لكني فقدت شبابي ومستقبلي وأسرتي بضربة واحدة من شبح أحمق.. إن هذا يذهلني أكثر منه يحزنني..»

ثبت أبي عينيه في عيني (عبد الصمد):

- «هل لي أن أعرف لماذا فعلت ذلك؟»
- «لأني.. لأني أحبك يا بك!»
- «لعمري هذا وفاء نادر.. لكنك تجاوزت الحد.. تجاوزته وكان يجب أن تسألني أولًا..»
وأطرق إلى الأرض يتأملها:
- «كان يجب أن تسألني أولًا..»

* * *

ومن يومها صار (ع) ملكي...
إنه يأتي لنا في كل أمسية، فيجلس جوار (محمود).. ويصغي لأشعاره الرديئة.. ويتبادل النكات مع المحامي.

وأحيانًا يسمح له أبي بمغادرة الغرفة، لأقف معه في الردهة نتبادل كلمات خجلى كالتي كنا نتبادلها على باب المدرسة..

لقد نسي (عبد الصمد) تفصيلًا بسيطًا...

من المستحيل الآن أن أتزوج من (ع) لأنّه شبح وأنا حية..

وقد غدا الوضع أكثر تعقيدًا مما كان....

لكنه ها هنا.. جواري إلى الأبد.. ومعه أبي.. وكل الأعزاء الذين أنتمي إليهم..

لقد صار (ع) واحدًا من أسرتنا أخيرًا..

وهذا يكفيني ويثلج صدري...

ويومًا ما سأموت.. عندها أكون معه للأبد.. ونذهب لنمضي أمسيات دافئة عند أخي أو أختي...

هذه هي أسطورتنا يا د. (رفعت):

حكيتها لك بأمانة وصدق...

لا آمل أن أجد عندك حلًا لهذا الوضع المستحيل.. لكني أرجوك ألا تبخل عليّ به لو كان عندك.....

المخلصة (هـ)

❋ ❋ ❋

خاتمة

مرحبًا.. أنا د. (رفعت) أعود إليكم لاستكمال التعليق على أحداث هذا الخطاب.. وهو - كالعادة - تعليق سخيف لا يضيف جديدًا..

لقد انتهت أسطورتهم..

وبالطبع لا أملك حلًا لمشكلة هذه الفتاة.. حتى لو ماتت فأنا أشك في إمكانية زواج الأشباح..

ثم إنها لا تريد الفرار من هذه البيئة.. إنها تمقتها لكنّها فخورة بها إلى حد غير عادي، وهذا واضح تمامًا...

إن القصية مقبضة دون شك.. وكابوسية.. ومشئومة.. لكنّها كانت تستحقق أن أحكيها، ولا أدري ما إذا كنت تشاركني الرأي في هذا..

أما عن مصداقيتها فأمر يحتمل النقاش...

ربما أحاول يومًا ما العثور على هذه الفتاة أو الاتصال بها.. إن الجلوس مع أشباح في قاعة واحدة، وتبادل الآراء.. الأمر جدير بالتجربة.. برغم كونه مريعًا....

ومن يدري؟

لربما اشتريت لنفسي قبرًا في هذه القرية، حتى إذا مت كان من السهل عليّ أن ألحق بهذه الأسرة الكبيرة، وحتّى لا أشعر بالوحدة في قبري....

لقد انتهت أسطورتهم...
انتهت بشكل من أشكال الحب المستحيل، مع الاعتذار للأستاذ (رءوف وصفي) على استعمال عنوان إحدى مجموعاته القصصية...
إن الحب بين شبح وإنسان حي لأمر عسير إلى حدٍ ما.. ولا أتوقع له نجاحًا كبيرًا....

❋ ❋ ❋

في القصة القادمة ندخل بعدًا آخر من أبعاد الفزع التي لا حصر لها.. سنتحدث عن آخر الليل.. ليس أوله ولا وسطه. بل

الهزيع الأخير منه، حين ينذر الفجر بقرب نجاتك.. لكنه لا يأتي أبدًا...

ولكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع:

١٦٠٦

المطبعة
العربية
الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧
المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت:
٢٨٢٣٧٩٢ -
٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورتنا..!

الناس يتهامسون .. يقولون إن بيتنا يختلف عن كل البيوت .. عاداتنا تختلف عن كل العادات .. ضيوفنا يختلفون عن كل الضيوف .. الناس يتهامسون ويرتجفون ؛ يعلمون أن لدينا سرًا صغيرًا .. وهذا السر يجعلنا لا كالآخرين .. ولدينا أسطورة تختلف عن كل الأساطير .. إنها أسطورتنا ..!



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم:
أسطورة آخر الليل



الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

Notes

[←1]
تعرفون المزيد عن هذا البرنامج في الكتب الثلاثين..

[←2]
طبعًا لم تقل الفتاة هذا.. لكني أحاول توضيح كلامها المفكك

[←3]

على فترات متباعدة..

[4←]

نعتذر على مستوى القصيدة. فهي من نظم المؤلف ذاته!

[←5]

نكرر الأسف!